

البديع في وصف الربيع

ابو الوليد الإشبيلي

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم. قال أبو الوليد إسماعيل بن محمد بن عامر رحمة الله تعالى ورضوانه عليه: أما بعد حمد الله على فضله المتناهي، والصلاة والسلام على خاتم رسله وناهج سبله، فإن أحق الأشياء بالتأليف، وأولاها بالتصنيف ما غفل عنه المؤلفون، ولم يعن به المصنفون مما تأنس النفوس إليه، وتلقاه بالحرص عليه. وفصل الربيع آرج وأهيج، وأنس وأنفس، وأبدع وأرفع من أن أحد حسن ذاته أو أعد بديع صفاته. وحسي بما يعلم الكل منها، ويخبر به الجميع عنها، شهيداً لما نقلته، دليلاً على ما قلته، وهو مع هذه الصفات الرائقة، والسماوات الشائقة، والآلات الفائقة، لم يعن بتأليفه أحد، ولا انفرد لتصنيفه منفرد.

قال مؤلفه أبو الوليد رحمة الله عليه: فلما رأيت ذلك جمعت هذا الكتاب مضمناً ذلك الباب، ولست أودعه إلا ما أذكره لأهل الأندلس خاصة في هذا المعنى، إذ أوصافهم لم تتكرر على الأسماع، ولا كثر امتزاجها بالطباع، فتردها شيقة، وترودها تيقة، وإنما ذلك لتضييع أهل بلدهم لأكثرها، وغفلتهم عن جعلها إنكاراً لفضلها مدة بقاء أهلها، فإذا انقرضوا تأسفوا بقدر ما كانوا تعسفوا، وحينئذ لا يجدون إلا قليلاً يغيب في كثيرها، وثمانداً يفيض عند مجورها، ولعمري إن هذه العلة مما صححت استغرابها، وأكدت استحسانها واستعدادها.

وأما أشعار المشرق، فقد كثر الوقوف عليها، والنظر إليها، حتى ما تميل نحوها النفوس، ولا يروقها منها العلق النفيس، مع أبي أستغني عنها ولا أحوج إلى ذكرها بما أذكره للأندلسيين من النثر المبتدع، والنظم المخترع، وأكثر ذلك لأهل عصري إذ لم تغب نوادرهم عن ذكري. وأما من بعد عصره، وكم فيهم من جليل قدره، فقلما أوردت لهم شيئاً لليلة التي تقدم ذكري لها من إهمالها وتضييعها.

ولأهل المشرق في تأليف أشعار شعرائهم، وتدوين أخبار علمائهم، الفضل علينا والسبق لنا، حتى لقد يجمعون خشينها مع حسنها، ويضيفون لحنها إلى لحنها، لا قلة ميز بما بل تخرجاً عن تركها. ولو جرى أهل الأندلس على تلك الطريقة لأوردت على الحقيقة أمثال ما أوردت وأضعاف ما اجتلبت. لكن أهل المشرق على تأليفهم لأشعارهم، وتثقيفهم لأخبارهم مذ تكلمت العرب بكلامها، وشغلت بنثرها ونظامها إلى هلم جرا..، لا يجدون لأنفسهم من التشبيهات في هذه الموصوفات ما وجدته لأهل بلدي

على كثرة ما سقط منها عن يدي بالغفلة التي ذكرتها عنها، وقلة التهمم بها، وعلى قرب عهد الأندلس بمنتحلي الإسلام، فكيف بمنتحلي الكلام، ولو تأخروا في إدراك المشرقين في كل نحو وغرض، وتقهقروا عن لحاقهم في كل جوهر وعرض، لكانوا أحقاء بالتأخر، أحرىء بالتقهقر. فكيف يرى فضلهم وقد سبقوا في أحسن المعاني مجتلى، وأطيبها مجتنى، وهو الباب الذي تضمنه هذا الكتاب، فلهم فيه من الاختراع الفائق، والابتداع الرائق، وحسن التمثيل والتشبيه، ما لا يقوم أولئك مقامهم فيه. والفضل في هذا الصنع الجميل لذي الوزارتين القاضي الجليل المنقطع المثل، ولابنه الحاجب الشهاب الثاقب نثره عباد، ورحمة الله على العباد مولي وسيدي أبقاهما الله سترأً علي. فهما اللذان أقامت مقعد المهتم يد اهتبالهما. وأمطرت أرض الفطن سماء أفضالهما، فدرت الدرر من تلك الفكر التي يسعيان لتحسين مرادهما وتحسين مرادهما.

وتأمل أيها الناظر في كتابي تأمل اليقظ المتقد، والمميز المنتقد تر أغرب التشبيهات، وأعجب الصفات، وأبرع الأبيات، وأبدع الكلمات لمن كان حوالبهما من مسند إليهما، معول عليهما، ومتصرف بين أيديهما، ومتورك على أيديهما. وإنما ذلك لترادف إحسانهما، وتعاقب امتنانهما وقديماً قيل: اللهم افتح اللهم، وبقدر ذلك أعملوا الفكر، وأنعموا النظر، فنظموا في جودهما درراً من الكلام، لا تسلك على سلكها غير الأيام، وكسوا جميل فعلهما جملاً من الجمال تبقى بقاء الليالي. فله درهما من ملكين نفقا سوق الأدب الكاسدة، وأصلحا حال العلم الفاسدة فكثر المتحلون لها والمتحلون بها، ولولاها - أطال الله بقاءهما وأدام اعتلاءهما - ما انفردت لهذا التأليف، ولا شغلت فكري بهذا التصنيف، ولا منيت نفسي به، ولا وثقت بها في ترتيبه. لكن بفضلهما الجزيل، وفعلهما الجميل، لاح السبيل، وعلمت كيف أقول، فجزاهما الله عما يولييان من الأيادي الحسان التي تداركتنا وقد بلغت القلوب حناجرها، وشحذت الخطوب حناجرها، وكشرت النوب عن أنيابها، وأدالت الأيام إعتابها بعتابها جزاء يجوز رضاهما، بل يجوز مناهما، وبعد العجز عن استيعاب جزيل إفضالهما، واستكمال جميل إقبالهما، فنعود إلى ما وعدنا به، ونجتلب ما بيننا على اجتلابه، وبالله ذي الجلال والإكرام العون على البدء والتمام.

باب ما جاء في الربيع والأنوار من البديع المختار

قال أبو الوليد إسماعيل بن عامر: من الصواب في الدواوين، والحذق في التواليف أن يضاف المثل إلى مثله، ويقرن الشكل بشكله، فيقصد الطالب أي معنى شاء فيجد مقصده، ويعتمد القارئ أي فصل أراد فيلني معتمده.

وهذا الباب كثير الفصول، غزير الفروع والأصول، على قلة الوصف له، والقول فيه، لكني رددته إلى ثلاثة فصول، وقصرته عليها، وقيدته بما.

فالفصل الأول: القطع في الربيع التي لم يسم فيها نور، ولا قصد بوصفها منه نوع.
والفصل الثاني: القطع التي لم تنفرد بوصف نوار، بل اشتملت على وصف نورين أو أنوار.
والفصل الثالث: في القطع المنفردة كل واحدة منها بنور على حدة، فمن طلب شيئاً قرب عليه وجدانه، ولم يغرب عنه مكانه.

وبعد الرغبة في التسديد والتوفيق والهداية إلى سواء الطريق، نبدأ بالفصل الأول في الربيع، ونذكر:

الفصل الأول

القطع التي لم يسم فيها نور ولا قصد بوصفها منه نوع

قال أبو الوليد: من المستحسن في هذا الباب قول أبي عمر أحمد بن عبد ربه:

وروضة عقدت أيدي الربيع بها	نوراً بنور وتزويجاً بتزويج
بملقح من سواربها وملقحة	وناتج من غوادبها ومنتوج
توشحت بملاة غير ملحمة	من نورها ورداء غير منسوج
فألبيت حلل الموشي زهرتها	وجللتها بأنماط الديابيج

سواربها: سحائبها الآتية ليلاً، من السرى، وهو سير الليل. وغوادبها: الآتية في الغداة.

ومن غريب الوصف في عجيب الرصف قول أبي عمر أحمد بن فرج الجياني:

أما الربيع فقد أراك حدائقا	لبست بها الأيام وشياً رائقا
فكأنما تجتر أذيال الصبا	فيها البروق أزهاراً وشقائقا
متقسمات بينها وسم الهوى	تحكي المشوق تارة والشائقا
من قانيء خجل وأصفر مظهر	للوجد كالمعشوق فاجا العاشقا
وكأنما نثرت على أجفانها	غر السحائب لؤلؤاً متناسقا
فإذا الصبا لعبت به في روضة	ذكر الفراق بها بكى وتعانقا

شبه اضطراب النوار بالرياح وقرب بعضها من بعض، وسقوط الندى منها بذلك الاضطراب بالتعاقب عند الفراق والبكى من أجله. ولأبي عمر أيضاً فيه قطعة غريبة التشبيه وهي:

سقي الحمى إن كنت تسعف

روى الصدى فيه الترشف

ع ووشيه برداً مصنف

وكأنها أعشار مصنف

في روضه شكلاً وأحرف

يا غيم أكبر حاجتي

رشف صداه فطالما

واخلع عليه من الربى

حتى ترى أنواره

وتخال مرفض الندى

وكتب عمر بن هشام إلى صديق له يستدعيه في رأس الربيع من جنة له فأحسن إحساناً يقرب على من تأمله ويبعد على من رآه: كتبت والأرض تستطير باستطارة شوقنا إليك، وهم أن تستقل بنا نحوك إذ صرنا بروضة استعارت لون السماء بخضرتها، وزهر نجومها بأنوارها، وبدور تمها بأقمارها. فقد افترشنا ثوب السماء، وحوينا زهرة الدنيا، وبيننا متطلعة إليك بأعناق الغزلان ولسمع حسك مصيخة الآذان، فإن عجلت فقهت طرباً، وتبودرت نخبا، وإن أبطأت أظلم في أعيننا النور، وكادت الأرض بنا تمور، والسلام.

قال أبو الوليد: في آخر هذه الرسالة من وصف الكؤوس، وسرور النفوس بمن حوطف فيها وكتب بها ما لم أعدبه، ولا قصدت قصد ذكره لكني لو فصلته منها لأخلت بها، فمن الأشياء أشياء يزداد حسنهما بما وصلت به، وقرنت معه، وربما أن في كتابي مثل هذا فمن رآه فليعلم أي إنما أسعى في استكمال الحديث واستيعاب الخبر لئلا أخل بما ابتدئ به بالنقص منه، ولست أفعل هذا إلا فيما يكون تبعاً لما أقصد إلى جمعه وأشغل بتأليفه.

ولذي الوزارتين القاضي - أدام الله عزه ووصل حرزه - قطعة نثر، بل نفثة سحر، جاوب بها أبا عامر بن أبي عامر - رحمه الله - وقت كونه بإشبيلية وقد كتب إليه يسأله بإباحة الخروج له إلى بعض ضياعه للنتزه في فصل الربيع. والقطعة بعد صدرها: وقفت على كتابك - أكرم به - وفهمت ما تضمنه وهي أوقات النتزه وأحيان التفرج فقد أشرقت الأرض وزهي الروض وأقبل فصل الربيع بكل حسن بديع، وأفصحت الطير بعد عجمتها، وأبدت النواوير غرائب زهرتها، وكست الورق شجرها وغطت الزروع مدرها فلست ترى إلا خضرة تسطع وثماراً تينع تجلو الصدى من الكبد الحرى وتزيح الأسى عن النفوس المرضى، وقد قال عليه السلام: "روحوا الأنفس فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد" وهذا كله بما من الله به من الغيث المغيث، فله الشكر واصباً والحمد دائماً على آلائه التي تترى ونعمه التي لا تحصى وهذا فيض بديهته وعفو سجيته، ولو روى لكان أرفع على أن لا أرفع، وأبدع على أن لا أبدع حرس الله حوباءه،

وصان ذكاهه. ومن البديع في وصف الربيع ما جاء به أبو عمر يوسف بن هارون الرمادي في قصيد يمدح به الوزير ابن بلشر فقال بع صدر منه:

على روضة قامت لنا بدرانك
إذا ما شربنا كأسنا صب فضلها
كأن السحاب الجون أعرس بالثرى
رياض يضاحكن الغزالة بعدما
رياح فوقها عين السماء بأربع
كأن سرور الأرض حزن سحابها
بكت فوقها عين السماء بأربع
كأن سرور الأرض حزن سحابها
إذا ما بكت لاحت لنا في تصنع
كأن سرور الأرض حزن سحابها
إذا ما بكت لاحت لنا في تصنع
حيائب لا يسمحن إلا بلحظة
وشمة أنه للمحب الممتع
بدائع ما أبدى الوزير بنانه
إلى صكه إلا أتانا بأبدع

شبهخط ممدوحه بالربيع في حسن منظره، وجمال مخبره، ودخوله إلى المدح في هذا الموضع مفضل له مستحسن منه والغزاة: الشمس يقال: طلعت الغزاة ولا يقال: غابت الغزاة وقال الأصمعي الغزاة: وقت طلوع الشمس وليست الشمس والجون من الأضداد يكون الأبيض والأسود. وهو هاهنا الأسود والتصنع التحسن والتزين.

ومن حسن ماله في هذا المعنى قوله في قصيدة يمدح العارض أحمد بن سعد بعد وصف سحابة ورعد وبرق وهو:

كست الأرض بساطاً رائقاً
أخرجت أسرارها إذ أخرجت
بطنها سداه والأرض تسج
كمحب ضاق وجداً صدره
صاح إن يبهجك وجه حسن
أعرس الروض ومن قيناته
فليكن وجه الربيع المبتهج
تتغنى أولاً في رجز
أم من خالف في الاسم السمج
ثم دخل إلى المدح كدخوله المتقدم فقال:
فإذا امتدت تغني في الهزج
وكأن الروض من خط أبي
بكر العارض وشي ودبج

قيناته: مغنياته، واحدهن قينة. ومن خالف في الاسم السمع أراد أم الحسن لأن الحسن ضد السمع. ولأبي عمر أيضاً قطعة حسنة يصف فيها الربيع من قصيد مطول بديع التشبيهات بديع الصفات يمدح به أبا علي البغدادي - رحمه الله - والقطعة بعد صدر من القصيد:

في إثرها وقعت ملاحم تجتلي ال
تأريخ بين سحائب ومحول

فكأنها جيش بدهم خيول
غاز إلى جيش بشهب خيول
قامت رواعدها يدق طبول
في حربها وبروقها بنصول
ولت جنود المحل ثم تحصنت
في قلب كل متيم معذول
بكت السحاب على الرياض فحسنت
منها غروساً من دموع ثكول
فكأنها والطل يشرق فوقها
وشي يحاك بلؤلؤ مفصول
غلبت على شمس النهار فألبست
منها ظهيرتها ثياب أصيل
فنزلت في فرش الرياض ولم يكن
ليحوزها مثلي بغير نزول
سلب العمامة بيننا متعمم
لطمت سوافه يدا مغلول
فوضعت في فمه فعل الذي
يهوى بريق حبيبته المعسول
غنى الطراة من الذباب لنا بها
طرباً فهجن شمائلًا بشمول
روض تعاهده السحاب كأنه
متعاهد من علم إسماعيل

قوله: فكأنها جيش بدهم خيول البيت، شبه السحاب في اسودادها بالخيل الدهم، والأرض في ابيضاضها قبل النبات بالخيول الشهب، وهذا من أبداع ما أستعير لهذا الموضع ومما حسنه ذكر الغزو بينهما وقوله: سلب العمامة بيننا متعمم البيت أراد ظرف الخمر الذي تسميه العامة الكوز. شبه مقبضه في عنقه بيدي مغلول. وعمامته فدامه وهو من مخترعاته الطريفة، ومبتدعاته الشريفة.

ووما حسن له - رحمه الله - في هذا المعنى قطعة من قصيدة شأى فيها من تقدم يمدح بها ابن القرشية وهو عبد العزيز بن المنذر بن عبد الرحمن الناصر لدين الله بعد أبيات غريبة في صفات عجيبة وهي:

تأمل بائر الغيم من زهرة الثرى
حياة عيون متن قبل التمتع
كأن الربيع الطلق أقبل مهدياً
بطلعة معشوق إلى عين مغرم
تعجبت من غوص الحيا في حشا الثرى
فأفشى الذي فيه ولم يتكلم

كأن الذي يسقي الثرى صرف قهوة
أرى حسناً في صفحة قد تغيرت
ألا يا سماء الأرض أعطيت بهجة
وإن قالت الأرض المنعم أرضها
فخضرة ما فيها يفوقك خضرة
وإن جئتها بالشمس والبدر والحيا
بعبد العزيز ابن الخلائف والذي
تتم عليه بالضمير المكتم
كبشر بدا في الوجه بعد التجهم
تطالعنا منها بوجه مقسم
لي الفضل في فخر عليك فسلمي
ونوارها فيها ثواقب أنجم
مفاخرة جاءت بأسنى وأكرم
جميع المعالي تنتمي حيث ينتمي

ودخوله في هذا الموضوع إلى المدح ومفاخرته بين السماء والأرض من المعاني التي سبق فيها واستولى على
الأمم بما. وقوله: كأن الذي يسقي الثرى صرف قهوة البيت شبه فيه إفشاء الأرض نوارها وخضرتها
بالمطر بإفشاء المرء أسرارته المكتومة بالقهوة وقوله ينم مستقبل من النميمة يقال: ينم بكسر النون وضمها
والكسر أفصح وقوله: بوجه مقسم أي محسن من القسام وهو الحسب وقوله: فسلمي أراد: فأذعني لها
وأقر بفضلها ولعبد الملك بن النفيل قطعة محكمة في هذا المعنى كتب بها إلى المنصور بن أبي عامر رحمه الله
بأرملاط:

انظر إلى حسن الزمان كأنما
بكت السماء على الربى فتبسمت
أهدى الربيع إليه سكب سمائه
ضحكت متون الأرض عند بكائه
وكذاك لم تكشف سريرة روضة
غيث أرانا كل نور ضاحكاً
متبختر في مشيه فكأنه
وكأنما زهر الرياض كواكب
فصل السرور بقهوة مشمولة
يلفك عن بشر لوجهك مبشر
منها ثغور عن عقائل جوهر
فكسا الثرى من كل لون أزهر
عن أبيض يقق يروق وأصفر
يوماً بأفصح من غمام ممطر
متطلق منها بنور أنور
ثان لها عطفاً وكاسر محجر
حسرة لنا عن كل زهر مقمر
تغنيك عن قبس ومسك أذفر

شبه بشر الزمان ببشر وجه ممدوحه في أول بيت وشبه ضياء الخمر بالقبس وريحها بالمسك إذ أقام مقامها
في آخر بيت.

وللكاتب أبي الأصبح عيسى بن عبد الملك بن قزمان من جملة قصيد مطول قطعة في هذا المعنى وهي إثر وصف البرق:

كم ذا أكن ضميره من روضة
يخفي ويضمره الحيا فكأنه
حتى إذا ما عانق الروض الثرى
متخالفات في الربى فنظائر
ترنو إليك جفونها عن أعين
أحلى وأملح من عيون جآذر

لا شيء أحسن منظراً إذا قسته
إن جئته أعطاك أجمل منظر
أو مخبراً من حسن روض ناضر
أو غبت زادك في النسيم الحاضر

وقال أبو أيوب بن سليمان بن بطال المتلمس في هذا المعنى فأحسن:

تبدت لنا الأرض مزهوة
كأن أزاهرها أكؤس
كأن الغصون لها أذرع
وقد أعجب النور فيها الذباب
كأن تعانقها في الجنوب
كأن تفرق أجفانها
علينا ببهجة أثوابها
حدثها أنامل شرابها
تناولها بعض أصحابها
فيهزج من فرط إعجابها
تعانق خوذ وأترابها
بكاها لفرقة أحبائها

مزهوة مفعولة من الزهو ومعناه متعجباً من حاله متكبراً لجمالها وتفرق الأجفان امتلاؤها بالدمع واستعارها للنور أجفاناً.

وقال محمد بن مسعود البجاني فأحسن في الوصف كل الإحسان:

أما ترى الأرض ألبيت حلاً
كأن أشجارها وقد كسيت
من أحمر كالعقيق منظره
وأبيض فوقه سقيط ندى
وثمر في الغصون تحسبه
من نسج أيدي السحائب الصوب
بدائعها من حليها المعجب
وأصفر كالفريد لم يتقب
كماء ورد في عنبر أشهب
جامد مر في الجو لم يسكب

أو أنجم الشرق بان مطلعها
خرائد يلتقينا في عرس
والماء يجري خلال ساحتها
للصبا نفحة تذكرنا
والطير في أيكها مغردة
أعجب بها من نواطق خرس
تفهمني عجمة بألسنها
مغنى الكلام المبين المعرب

وللوزير أبي عامر بن شهيد رحمه الله في الربيع قطعة عجيبة من قصيدة طويلة مشتملة على أوصاف سواها مسغربة ومعان غيرها مستعذبة والقطعة:

سهر الحيا برياضها
حتى اغتدت زهراتها
من ثيبات لم تبل
وصغار أباكار شكت
حييت بطوفان الحيا
أصناف زهر طوقت
من باسم باك إلي
فأسالها والنور نائم
كالغيد باللجج العوائل
كشف الخدود ولا المعاصم
خجلاً فعادت بالكمام
فتضاحكت والجو واجم
درر تذوب بكف ناظم
ك ند وبالك وهو باسم

وقال الوزير أبو عامر بن مسلمة يصفه بوصف أبدع فيه وأغرب وأنبأ عن حذقه وأعرب، أنشدنيه موصولاً بوصف الحاجب - أدام الله عزه ووصل حرزه - وهو:

أهلاً وسهلاً بوفود الربيع
كأنما أنواره حلة
أحبب به من زائر زاهر
بث على الأرض درانيكه
كأنما الحاجب ذو المن وال
أهدى إليه طيب بأخلاقه
وثغره البسام عند الطلوع
من وشي صنعاء السري الرفيع
دعا إلى اللهو فكنت السميع
فكل ما تبصر منها بديع
م إحسان إسماعيل مولى الجميع
فنحن منها دهرها في ربيع

لا زال يبقى سالماً ما دعت
 قمرية في فنن ذي فروع
 قال أبو بكر عبادة بن ماء السماء يصفه بأوصاف بديعة وتشبيهات رفيعة وبدأ بذكر السحابة:
 ولعوب عشقت روض الثرى
 فهي تأتيه على طول البعد
 فيرى الروض إذا ما وصلت
 أرج العرف من الطيب الجسد
 عطراً ملتبساً ملتحفاً
 في سراويل من الحسن جدد
 كمحب زار محبوب له
 فتحلى للقاء واستعد
 وإذا ما ودعت أبصرتها
 في نحول العاشق الصب الكمد
 تلحظ النور بلحظ فاتر
 مثل جفن حائر فيه رمد
 وجفون النور تهمي بالبكاء
 كجفون الصب من فقد الجلد
 فهما في حيرة عند النوى
 كمحبين أحسا بالبعد
 ولأبي بكر أيضاً قطعة بديهة وهي:
 أما ترى باكراً النور الذي نجما
 كأنه آيب من غيبة قدما
 والقطر ساق له والبرق يعجله
 سقياه فعلة داعي الشرب بالندما
 كأنه سلك در حل أو كلف
 بكى فلما دنا محبوبه ابتسما
 كأنه مبدئه في الأفق منتثراً
 أعاده في أنيق الروض منتظما
 فلا ترد على الساقى حكومته
 فإن دين الهوى راض بما حكما

أشار إلى حسن الساقى في آخر بيت وأحسن منها مجتلى وأطيب مجتنى في هذا المعنى ما أنشدنيه لنفسه
 الفقيه أبو الحسن علي ممتزجاً يمدح الوزير أبو بكر عبد الله ذي الوزارتين القاضي - أعزهما الله - وهو:

قد قلت للروض ونواره
 نوعان تبري وفضي
 وعرفه مختلف طيبه
 صنفان خمري ومسكي
 ووجه عبد الله قد لاح لي
 وهو من البهجة دري
 شم غرسك الأرضي إن الذي
 أبصرته غرس سماوي
 حسنك نوري بلا مرية
 وحسن عبد الله نوري

أضحى صغير وهو في قدره نيلاً كبير الشأن علوي

قوله شم أمر من شام يشيم إذا سل وأغمد من الأضداد وهو ها هنا الأعماد ومعنة القطعة أنيق ومغزها دقيق. ومن الصفات المطبوعة في الكلمات المصنوعة قطعة لأبي الحسن أنشدنيها وهي:

وقفت على الروض في يوم طش
وقد صقل الطل نواره
فما غصن يشتكي عطلة
ترى النبات صنفين من بهجة
ومن لابس ثوب طاووسة
وفص من النور لم ينتقش
جمال يحير لب الفتى
ويكسبه من شرور دهش

ومن النهاية في الحسن والإحسان قول أبي عبد الله بن محمد بن سليمان المعروف بابن الحنات في قصيد أوله:

راحت تذكر بالنسيم الراحة وطفاء تكسر الجنوح جناحا

يعني السحاب ثم خرج من وصفها بعد أبيات إلى وصف الروض فقال:

جادت على التلعات فاكتست الربا
فانظر إلى الروض الأريض وقد غدا
والنور يبسط نحو ديميتها يداً
وتخاله حيي الحيا من فوجه
حللاً أقام لها الربيع وشاحا
لبكا الغوادي ضاحكاً مرتاحا
أهدى لها ساقى الندى أقداحا
بذكيه فإذا سقاه فاحا

وأخبرني الفقيه أبو الحسن بن علي قال: كان في داري بقرطبة حائر صنع فيه مرج بديع وظلل بالياسمين فترهت إليه أبا حفص التدمري في زمن الربيع فقال: ينبغي أن تسمي هذا المرج السندسة وصنع على البديهة أبياتاً تشاكل هذا الباب وتطابق غرض الكتاب وهي:

نهار نعيمك ما أنفسه
تأمل
وربع سرورك ما أنسه
وقيت ملم الخطوب فعل الربيع وما أسسه
بحائر قصرك من صوغه
دنانير قد قارنت أفلسه
وأسطار نور قد استوتقت
وسطر على الغمر قد طلسه

ونبت له مدرع أخضر
فأبدع ما صاغ لكنه
مدارعا خضرة غضة
كأن الظلال علينا بها
كأن النواوير في أفقها
ومهما تأملت تحسينها
محل لعمر ك قد طيب ال

بصفرة أصباغه ورسه
أجل بدائعه السندسه
أعاد النعيم لها ملبسه
أواخر ليل على مغلسه
نجوم تطلعن في حندسه
فعيني بقرتها معرسه
إله ثراه وقد قدسه

المغلسه جمع مغلس وهو الداخلى فى الغلس. ولصاحب الشرطة أبى بكر القوطية فى هذا المعنى الذى
عرضت فى كتابى وقصدته بتأليفى نواذر مبتدعة ومعاني مخترعة وقطعة من السحر مقطعة ستقع فى أبوابها
وتوضع مع أشكالها فمن بديع ما أنشدنيه قوله:

ضحك الثرى وبدا لك استبشاره
وربت حدائقه وأزر نبتة
واهتز ذابل نبت كل قرارة
وتعمت صلح الربا بنباتها
وكأنما الروض الأنيق وقد بدت
بيض وصفراً فاقعات صائغ
سبك الخميلى عسجداً ووذيلة
فتوسد الديباجة وافترشنا له ال
وتصوغت ريح الرياض كأنما
فاشرب إذا اعتدل الزمان ووزنه

واخضر شاربه وطر عذاره
وتفطرت أنواره وثماره
لما أتى متطلعاً آزاره
وترنمت من عجمة أطياره
متلونات غضة ألوانه
لم يناً درهمه ولا ديناره
لما غدت شمس الظهيرة ناره
وشي الذى من غير صنع داره
فت العبير بأرضها عطاره
وإذا استوى بالليل نهاره

شبه الروض بالصائغ وأبيض نوره وأصفره بدراهمه ودنانيره والخميلى: مسترق الرمل والوذيلة: الصفيحة
من الفضة وجمعها على فعائل وأبدع من هذا وأطبع ما أنشدنيه لنفسه:

لما رأى العام زمان الربى
ع الطلق قد نشر عرف الكبى

أجرى إلى غايته مجهداً
فكلما رام لحاقاً كبا

والنور قد بث دنائيره مفضضاً

إن شئت أو مذهباً

إستعمل الحيلة لما وني

ولم يجد عن قصده مذهباً

فقال: أسلفني يوماً بشه

ر فأجابته رياض الربا:

هذا الربا والله في وحيه ال

منزل قد حرم فعل الربا

ومما يوازي هذه القطعة دقة ويشاكلها رقة قوله:

قد أخذ الأفق في البكاء

واغرورقت مقلة السماء

فالأرض إن أظهرت جفاء

أرسل عينيه بالبكاء

كأنه عاشق مشوق

يشكو هواه إلى الهواء

مرجياً أن يلين منها

ما أظهرته من الجفاء

حتى إذا راضها سفيراً

صدت بوجه من الحياء

وانتقبت بالنبات عنه

والتحفت عنه في رداء

وللوزير الكاتب أبي حفص بن برد في هذا المعنى قطعة نثر مقطعة من السحر في رسالة كتب بها عند صدره من دانية إلى الوزير الكاتب أبي إسحاق بن حمام وقد خرجا متزهين في ما يقرب من مدينة قرطبة في زمن الربيع يصف حسن شمائلها ويورد شرف فضائلها وهي - أعني القطعة - بعد صدر: كيف شاهدت أنهارها وقد درت عليها أخلاف الأنوار فأتأفتها؟ وأنوارها وقد سرت إليها خيالات الأنداء فأرقتها؟ وكيف تأملت الربيع وقد صاغ لمفارقتها تيجاناً؟ وفتق لمعاصيمها أرداناً؟ فكأنما راسلت الأرض زهر النجوم مع كدر الغيوم أن تبديها عند جلائها؟ في هيئة سمائها. وكيف عاينت انشقاق تلك الأباطح عن نهرها السابح؟ كأنه فضة تحتها نار، فليس لها أبداً قرار، يلبس للريح لأمه، ويسل على الشمس صمصامه.

قوله: أخلاف الأنواء من حسن الاستعارة. وأتأفتها: ملائمتها. وبعد هذا وقبله من المعاني الطريفة، والنوادر الطريفة، ما يحل من الأسماع محل السماع، ويجري على الأفواه مجرى الأمواه، ولكنها ليست مما قصدت إلى جمعه، ولا عنيت بذكره.

قال أبو الوليد: فجوابه الوزير الكاتب أبو إسحاق بن حمام عن تلك المعاني بشكلها براءة وبزاعة، وعلى تلك الفصول بمثلها صياغة وصناعة، وفي آخر جوابه أوصاف في أصناف النواوي، وتشبيهات لأنواع الأزاهير تعجب متأملها، وتعجز متتبعها، وهي إثر ذكر الأنواء: قد نسجت لها من زهر الربيع حللاً، وسقتها من مجحتها عذباً غللاً، وأطلعت فيها آثار الغيوم أشباه النجوم، فازدانت بأهيج لبوس، وبرزت

للناظرين في حلي العروس، كأنما اختلست لفظك فلبسته، أو أمكنها كلامك فتوشحته، فمن قانيء صيغ الهواء غلائله، وغذت السماء خمائله، لا يشتكي من نداها بشرق، ولا يبیت من ظمأ على فرق حتى بدا في لون شفق، فكأنما شرب رحيقاً، أو لبس عقيقاً أو كأنما خاف عدلاً فاحمر خجلاً. يحمل من طله فرائد. كأنها أدمع خرائد. أو فاقع يجنيك تبراً، ويريك من لونه سحراً، يلقاك من حسنه في أجمل منظر، ويختال من جلابيه في معصفر، كأنما خافت هجرأ، واستشعرت ذعراً. ترنو إليك بمقل حسان لا تنطبق منها الأجنان. فكأنما تشكو سهراً، أضعف منها نظراً إلى تحاسين قد لبست ثوب بهائها وضحكت عند بكاء سمائها. تروقك من حسنها فنون، وترنو نحوك منها عيون. فمن بصير وأكمه، وكحيل وأمره. قوله: عذباً غللاً، الغلل: الماء الجاري بين الأشجار عن الأصمعي. أبو عبيدة: الغلل: الماء الظاهر الجاري، وهو الغيل أيضاً والقانيء: الأحمر. والفاقع: الأصفر. ويقال في الأسود: حالك وحانك. وفي الأبيض: يقق والأكمه: المولود أعمى. والأمره: الذي لا يكتحل. ومن السني البديع، والسري الرفيع، في فصل الربيع ما أنشدنيه أبو جعفر بن الأبار موصولاً بمدح الحاجب وهو:

لبس الربيع الطلق برد شبابه	وافتر عن عتابه بعد عتابه
ملك الفصول حبا الثرى بثرائه	متبرجاً لو هاده وهضابه
فأراك بالأنوار وشي بروده	وأراك بالأشجار خضر قبابه
أمسى يذهبها بشمس أصيله	وغدا يفضضها بدمع جنابه
عقل العقول فما تكيف حسنه	وثنى العيون جنائباً بجنابه
بالحاجب المأمول أضحك ثغره	فرحاً وأنطق جهرنا بصوابه
بعماد هذا الدين والملك الذي	تتبادر الأملاك لثم ركابه
هز الصعاد فأرعدت من خوفه	وعلا الجياد فأصبحت تزهى به

عتابه: رضاه. وعتابه: سخطه. ووهاده. المواضع المنخفضة. ونجاده: المرتفعة. جنائباً: موقوفة النظر عليه. وقوله: هز الصعاد: جمع صعدة: وهي القناة النابتة مستقيمة لا تحتاج إلى ثقل وتقوم. وله أيضاً في هذا المعنى قطعة بديعة الغرض موصولة بمدح أبي - وقاه الله بي - وهي:

استيشر الدهر بعد ما استبصر	فراق منه الرواء والمخبر
وجرد الجو ثوب دكنته	واكتست الأرض ثوبها الأخضر

لما بكى الغيث قبل واستعبر
إلا انتحى الروض نظم ما ينثر
إلا دم المحل بينها يهدر
لم يكن الروض يثمر الجواهر
تهجع طوراً وتارة تسهر
للأنف مسكاً من ردعها أذفر
بكل نجم من زهرها أزهر
بالغر والصيد من بني حمير
وكل ليث إذا القنا كسر
وكل سهم إذا علا منبر
حسبت ذا المجد بينها الكوثر

وأضحكت عن بديع زهرتها
ما در درُ الغمام منتثراً
ولا انتضى البرق فيه أنصله
لولا عقيق البروق حين سرى
حدائق بل كأنها حدق
إذا صبت نحوها الصبا فتقت
أرض تباهي السماء مشرقة
وقبل ما فاخرت كواكبها
بكل غيث إذا السماء صحت
وكل سهم إذا انتحى غرضاً
بحار جود تفيض من كرم

قوله: وكل سهم. الشهم: الذكي القلب.

وقال صاحب الشرطة أبو بكر بن القوطية يصف الربيع ويمدح ذا الوزارتين أبا عمرو أحمد بن إسماعيل بن عباد:

ينظم در السما مليا
متى غدا النبات صيرفيا
يحيي لها نورها البهيا
محض وآزار قسطريا
ينتقد المحض والرديا
رو نجل عباد السريا
والحول القلب الكميا
والمنبه المدره الذكيا

أما ترى الروض جوهرياً
والنور من فضة وتبر
حتى كأن الربيع ملك
ترى نواويره كتبر
قد مد نطعاً على رباها
مثل انتقاد العلا أبا عم
الراجح الواضح المحيا
والمنجب المعجب افتناناً

قال أبو الوليد: ومما قلته في هذا المعنى قطعة موصولة بمدح الحاجب - أطال الله بقاءه وحرس حواءه - وهي:

وأناك ينثر ما طوى من نشره

أبشر فقد سفر الثرى عن بشره

متحصناً من حسنه في معقل
عقل العيون على رعاية زهره
فض الربيع ختامه فبدا لنا
ما كان من سرائه في سره
من بعد ما سحب السحاب ذبوله
فيه ودر عليه أنفس دره
فأحل جفونك فيه تجل صدا بها
لولا انبراء جماله لم تبره
واشكر لأذار بدائع ما ترى
من حسن منظره النظير وخبره
شهر كأن الحاجب ابن محمد
ألقي عليه مسحة من بشره
ملك تملك رقنا بمكارم
جعلت له غفر النجوم كعفره
لا زال خطب زمانه في أسره
فلقد رأيت به هواي بأسره

الغفر: نجم. والغفر: التراب. يقال غفر وغفر فكأنه لعلو منزلته وسمو درجته قد استويا في بعدهما منه وتباينهما عنه وأسرته في شطر البيت: في ملكه وتحت حكمه من الأسر المعروف وبأسره في القافية. بمعنى كله وجميعه. يقال: أخذت الشيء بأسره أي جميعه. ولي أيضاً في مثل ذلك:

بكت السماء فأضحكت سن الثرى
بمدامع نظمت عليه جوهره
فكأنها خرقاء تنثر عقدها
وكأنه مستغنم أن ينثرا
عكفت يداه على نظام فريده
وجمانه فرداً لذاك مشمرا
فأعاده أبهى لطرف منظرا
وأعده أذكى لأنف مخبرا
فانظر محاسنا للربيع تبرجت
لولا الربيع لما تجلت لورى

ومن المستحسن المستغرب والمستطاب المستعذب في هذ المعنى قطعة لأبي بكر بن نصر كتب بها إلي في زمن الربيع يسألني الخروج إلى حيث يبدو كماله ويظهر جماله والقطعة:

انظر نسيم الروض رق فوجهه
لك عن أسرته السرية يسفر
خضل بريعان الربيع وقد غدا
للعين وهو من النضارة منظر
قد طرزت منه البرود وطررت
بالوشي فهو مطرز ومطرر
وكأنما تلك الرياض عرائس
ملبوسهن معصفر ومزعفر
أو كالثقيان لبسن موشي الحلى
فلهن من وشي اللباس تبختر
أرض مدبجة الروابي غضة الت
تلعات فهي عن العبير تعبر
يتعطل العطر المسك الذكي لعرفها
وبه الزمان وحسنه يتعطر

مصفوفة أنماطها ممدودة
 حبراتها تبدو إليك وتظهر
 فكأنما صنعاء أهدت وشيها
 ورمت مطارفها الطريفة عبقر
 حسن يقدر في الربيع ولا ترى
 أنوار أشجاء غدت أوراقها
 فاسمع لصحبك أن تروض رياضها
 ورقاً ترقق بالحباب فتقطر
 معهم فإن عيونك بها تنتظر
 مهدهم نحو البطاح نزاها
 غراء تزهي بالسماح وتفخر

فلما وصلت هذه القطعة إلي، ووردت علي، أثارت مني كامناً، وحركت ساكناً، في ما ندب إليه وحض عليه، فخاطبت أبي - وقاه الله بي - برسالة فيها بعض أصناف هذه الأوصاف أسأله إباحة الخروج فبلغني أملي. والرسالة بعد صدرها: لما خلق الربيع من أخلاقك الغر وسرق زهره من شيمك الزهر حسن لكل عين منظره وطاب في كل سمع خبره وتاقت النفوس إلى الراحة فيه ومالت إلى الإشراف على بعض ما تحويه من النور الذي كسا الأرض حلاًلاً لا يرى الناظر في أنثائها حلاًلاً فكأنها نجوم نثرت على الثرا وقد ملئت مسكاً وعنبراً إن تنسمتها فأرجة أو توسمتها فبهجة تروق العيون أجناسها وتحى النفوس أنفاسها:

فالأرض في بردة من يانع الزهر
 تترى إذا قستها بالوشي والحبر
 قد أحكمتها أكف المزن وأكفه
 وطرزتها بما تهمني من الدر
 تبرجت فسببت منا العيون هوى
 وفتنة بعد طول الستر والخفر

فأوجدني بمعانيك سبيلاً إلى أعمال بصري فيها لأجلو بصيرتي بمحاسن نواحيها فالفصل على أن يكمل أوانه وينصرم وقته وزمانه فلا تخلني من بعض التشفي منه لأصدر نفسي متيقظة عنه فعهدي بمثل ما سألته بعيد وشوقي إليه شديد والنفوس تصدأ كما يصدأ الحديد ومن أجمها فهو السديد الرشيد واكفه في الشعر هاطلة غزيرة.

ومن المصنوع المطبوع في وصف الربيع ما أنشدنيه لنفسه أبو القاسم البلخي وهو:

انظر ونزه ناظريك بروضة
 غناء ما زالت تراح وتمطر
 لتريك من صنعاء صنعة وشيها
 بمطارف من تستر لا تستر
 ألوانها شتى وطيب نسيمها
 يقصى العبير به وينسى العنبر

تراح من الريح مثل تمطر من المطر.

قال أبو الوليد: وخرجت متزهاً في زمن الربيع إلى بعض ضياعي فكتبت منها إلى صاحب الشرطة أبي الوليد ابن العثماني قطعة نثر تحتمل أن تدخل في هذا الباب وهي بعض صدرها: قد علم سيدي أن بمرآه يكمل جذلي ويدنو أمني وقد حللت محلاً أعني الجو بتحسينه وانفرد الربيع بتحسينه فكساه حلاً من الأنوار بما ينجلي صداً البصائر والأبصار فمن مكوم يعبق مسكه ولا يمنعه مسكه ومن باد يروق مجتلاه ويفوق مجتناه في مرآه ورياه فتفضل بالخفوف نحوي وتعجيل اللحاق بي لنجدد للأنس مغاني قد درست ونفك من السرور معاني قد أشكلت ونشكر للربيع ما أرانا من البديع إن شاء الله. المكوم: هو الذي في كمامته لم يبد ومسكه: جلده أعني الكمامة.

الفصل الثاني

القطع التي لم تنفرد بنوار وإنها اشتملت على نورين أو أنوار

قال أحمد بن هشام بن عبد العزيز بن سعيد الخير بن الإمام الحكم - رضي الله عنهم - يصف النرجس والورد من جملة قصيد مطول:

أحمره ضاحك وأصفره

انظر إلى الروض في جوانبه

بهفوها مسكه وعنبره

إذا هفت فوقه الرياح سرى

حتى كأن الحبيب يهجره

نرجسه تستجد صفرتة

تطويه أكامه وتنتشره

والورد يختال في منابته

قال أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه:

بين نظم الربيع والمنثور

باكر الروض في رياض السرور

أثر العض في بياض الصدور

في رياض من البنفسج يحكي

ذهباً نابتاً على كافور

وترى السوسن المنعم يحكي

وكتب عمر بن هشام بن قليليل إلى صديق له يستدعيه في زمن الربيع ويصف ما عنده من النواوير بوصف بديع: نحن - أكرمك الله - على بسط الرياحين ودرانك الورد والياسمين ووشي رياض مونقه، حاكتها أيدي الربيع المغدقة. تلاحظنا عن أعين النرجس والسوسان، بأحلى محاجر وأجفان، وتبسم عن نور الأقحوان. تمثل الدر والمرجان، فهي متضوعة عن لطائم المسك، متنفسة بأرج الورد، جذلة بمهجة، فائحة أرجة، فإن تقارن حسنها بحسن وجهك فهي حالية مشرقة، وإن عطلت من ضياء غرتك فهي

باكية مطرقة.

ولعبد الزكي بن عثمان الأصم قطعة حسنة في الورد والأفاح وهي:

وغيض من جنى الور
د حكى الصبح انفجارا
وأكاليل أفاح
ي يخالسن حذارا
مشرئبات إلى الشم
س بأحداق حيارا
إن سقاه الطل في السر
ر تضاحكن جهارا

ولأبي مروان عبد الملك بن سعيد المرادي قصيد سري يمدح به الناصر لدين الله - رحمه الله - وفيه
أوصاف لنواير وتشبيهات في أزاهير فمنها قوله:

كأن جنى الورد أحد حوله
جنى سوسن مستطرف اللون أزهر
خدود العذارى المخجلات تحفها
عوارضها مبيضة لم تخفر
وأعين عقيان بأجفان لؤلؤ
على كل فرع كالزمرد أخضر

وللحاجب أبي الحسن جعفر بن عثمان المصحفي - رحمه الله - في هذا المعنى أبيات بارعة، فيها تشبيهات
رائعة وهي:

انظر إلى الروض الأريض تخاله
كالوشى نمق أحسن التتميق
وكأنما السوسان صب مدنف
لعبت يداه بجبيه المشقوق
يوم الوداع ومزقت أثوابه
جزعاً عليه أيما تمزيق
والنرجس الغض الذكي محاجر
تعبت من التسهيد والتأريق
يحكي لنا لون المحب بلونه
وإذا تنسم نكهة المعشوق
وكان دائرة الحديقة عندما
جاء الغمام لها برشف الريق
فلك من الياقوت يسطع نوره
فيه كواكب جوهر وعقيق

شبه أوراق السوسن في افتراقها بجيب مشقوق، وهو معنى دقيق أنيق، وقد تداوله جماعة وأظنه من
اختراعه وتشبيهه الأخير في الحديقة من التشبيهات العقم على الحقيقة.

ولأبي القاسم بن هانئ الأندلسي قطعة بديهة سرية كلها سنية يصف فيها الورد والياسمين والنرجس
صنعها في مجلس جعفر بن الأندلسية وقيل في مجلس جعفر بن فلاح وهي:

وثلاثة لم تجتمع في مجلس
الورد في شمامة من فضة
والنرجس الغض الذكي ولونه
فاحمر ذا وبيض ذا واصفر ذا
فكأن هذا عاشق وكأن ذا
إلا لمتلك والأديب أريب
والياسمين وكل ذلك عجيب
لون المحب إذا جفاه حبيب
فببت دلائل كلهن غريب
ك معشوق وكأن ذاك رقيب

وقال أبو عبد الملك الطليق وهو مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الناصر لدين الله يصف
الورد والبهار في قصيد مشهور له لم يصنع بعده ولا قبله على عروضه وقافيته ما يوازيه جمالاً ولا يضاهيه
كمالاً والوصف بعد صدر في سواه:

وكأن الورد يعلوه الندى
يتفقا على انبهار فاقع
كالمحبين الوصولين غدا
يا لها من أنجم في روضة
ودنت منها إلى شمس الضحى
وجنة المعشوق تندى عرقا
خلته بالورد يطوي ومقا
خجلاً هذا وهذا فرقا
قد ترققت من رباها أفقا
حدق للنور تصبي الحدقا

تشبيه الورد بوجنة المعشوق كثير إلا أنه أعرب بزيادة الندى ومقابلته بالعرق وقوله بتفقا أراد ينشق
وينجاب ومنه حديث أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - : نحن عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم
ويبيضته التي تفقت عنه. أراد انشقت وانجابت ودل على البهارة بين الورد. وقال أبو عمرو يوسف بن
هارون الرمادي يصف الورد والأقاحي:

وفي الورد غصاً والأقاحي محاسن
خدود عذارى لو تقصى حياؤها
سرقنا من الأحباب للمتشوق
وأفواه حور لو سمحنا بمنطق

هذان التشبيهان معروفان لا سيما قلبهما ولكن لو فهما حسنتهما معاً وأبدعت فيهما بدعاً.
وللمتوكل بن أبي الحسين قطعة بديعة يصف فيها نواوير وهي:

في رياض بسطها زهر
نرجس يرنو بلحظته
فترى ذا سافراً خجلاً
وترى الخيرية مكتنماً
مظهر من أيكها قببا
نحو ورد طالما انتقبا
وترى ذا عاشقاً نصبا
مثل لص كان أن يثبا

فإذا ما الليل ستره

أظهر الفتكة واستلبا

ولأبي بكر بن هذيل قطعة رقيقة الصفات بديعة التشبيهات في نواوير عدة وهي:

حديقة نفس تملأ النفس بهجة

وتثنى عيون الناظرين بها حسرى

كأن جنى الجنار ووردها

عشيقان لما استجمعا أظهر ا خفرا

كأن جنى سوسانها في سنا الضحى

كؤوس من البلور قد حشيت تبرا

كأن عيون النرجس الغض بالندى

عيون تداري الدمع خيفة أن يدرى

كأن جنى الخيري في غبش الدجا

نسيم حبيب زار عاشقة سرا

كأن ينابيع المياه مراحل

تفور وقد أذكت لهن الحصى جمرا

شبه المياه في آخر البيت بالمراحل وهي قدور واحدها مرجل. وللوزير أبو عامر بن شهيد - رحمه الله - قصيد يمدح بها سليمان المستعين بالله - نصر الله وجهه - في فصل النيروز وفيه قطعة عجيبة في نواوير عدة:

وأتاك بالنيروز شوق حافز

وتطلع للزور غب تطلع

وفاك في زمن عجيب مونق

وأتاك في زهر كريم ممتع

فانظر إلى حسن الربيع وقد جلّت

عن ثوب نور للربيع مجزع

فكأن نرجسها وقد حشدت به

زهر النجوم تقاربت في مطلع

أو أعين الأحباب حين تراسلت

باللحظ تحت تخوف وتوقع

وبها البنفسج قد حكى بخضوعه

وقنولون في سواد مشبع

خد الحبيب وقد عضضت بحنة

فشكا إليك بأنة وتوجع

وكانما خيريتها تحت الدجا

بين الأزاهر قام كالمطلع

يرجو زيارة من يحب لوعده

كلفأ فبات مراقبها لم يهجع

وكتب الوزير أبو عامر بن مسلمة وبين يديه ورد وسوسان ونيلوفر إلى صاحب الشرطة أبو بكر بن القوطية يسأله وصفها وشرط في رغبته أن يكون أول الشعر:

وثلاثة لما اجتمعن بمجلس

نبهن مني همة لم تنعس

فأضاف أبو بكر إليه بديهة أبياتاً سرية تعجز من رامها روية وبعث بها إليه وهي:

وثلاثة لما اجتمعنا بمجلس

نبهن مني همة لم تتعس

ودعون حي على الصبوح فشقتني

بدعائهن إلى لقاء الأكوس

ورد كمثل دم الوريد وسوسن

غض بسوسي الغلائل مكتس

ويزينه نيلوفر أوراقه

ورق جرى من فوق أخضر أملس

فإذا سرت أنفاسها لك أبرأت

بلطيف رياها عليل الأنفس

الورد والسوسان والنيلوفر ال

أرج المشم محرك وموسوسي

فاقت بحسن روائها وأريجها

فيها من النوار أعرم مجلسي

وأنشدني أيضاً لنفسه صاحب الشرطة أبو بكر بن القوطية أبيتاً يصف فيها الورد والسوسان قصر على جميع تشبيهاها وبديع صفاتها الحسن والإحسان وهي:

قم فاسقنيها على الورد الذي فغما

وباكر السوسن الغض الذي نجما

كأنما ارتضعا خلفي سمائهما

فأرضعت لبناً هذا وذاك دما

جسمان قد كفر الكافور ذاك وقد

عق العقيق احمراراً وما احتشما

كأن ذا طلية نصت لمعترض

وذاك خد غداة البين قد لظما

أولا فذاك أنابيب اللجين وذا

جمر الغضى حركته النار فاضطرما

قوله: على الورد الذي فغما أي الذي سدت ريحه الخياشيم. وقوله: الذي نجم أي الذي طلع والطلية: سفحة العنق، وهي واحدة الطلى. ولغة ثانية في الطلية: طلاه. ونصت: رفعت. وأنشدني لنفسه الوزير أبو عامر بن مسلمة قطعة يصف فيها البهار والبنفسج بأوصاف غريبة، ويشبهها بتشبيهات عجيبة:

قدم البهار مع البنفسج فاشرب

ن عليهما بين الرياض الغضة

هذا كمعشوق وعاشقه وذا

مثل الحزين دموعه مرفضة

وترى البهار كأنه ياقوتة

صفراء تحملها أكف بضه

قد سترت حذر الرقيب معاصماً

بمطارف خضر وأبدت فضة

وجرى النضار بها فحسن خلقها

كمثال معشوق تشكا مرضة

وكأن ذاك بخدها وبنحرها

عند العيان لنا بقايا عضة

قوله: كن ذاك أشار إلى البنفسج إذا بعد ذكره لاشتغاله بوصف البهار.

وللوزير أبي عامر بن مسلمة أيضاً قطعة في جملة من النواوير وعدة من الأزاهير أبدع من المتقدمة على ألا

أبداع وأرفع منها على ألا أرفع تضمن من التشبيهات غريبها ومن الصفات عجيبها أنشدنيها موصولة
بمدح ذي الوزارتين القاضي - وصل الله حرمة وأدام عزته - وهي:

وروضة مشرقة	بكل نور مجتني
فيها بهار باهر	ونرجس يشكو الضنى
وياسمين أرضه	ونوره تلونا
كالليل مخضراً ول	كن بالنجوم زينا
فاجتتي ورداً وارداً	وسوسناً ملسنا
وحوله نيلوفر	فتنة ران إن رنا
تخاله مضارباً	من المها تروقنا
والأس أس كاسمه	بنوره قد حسنا
تنويره جواهر	من غير بحر نقتنى
وحبه من سبج	أو سندس قد لونا

وقد بدا فيها البنف	سج الندي العض الجن
وأرضه مطارف	خضر أتتنا بالمن
طابت بطيب ماجد	فاق سناء وسنا
ذاك ابن عباد عما	دي وسراجي في الدنيا
فهو يثير الحق وال	عدل ويحيي السننا
ونوره مسك فتي	ت حسنه يفتننا
قاص بنشر عدله	طابت لنا أزمنا
لا زال يبقى ما علا	قمري أيك فننا

وللوزير أبي عامر بن مسلمة أيضاً قطعة بديهة سرية كلها سنية قالها وبين يديه ثلاثة أنوار: خيري
وبنفسج وبهار وأنشد:

وثلاثة لما اجتمعن بمجلسي	أفررنا عين تنزهي وتأنسي
نمام طيب في بهار باهر	وبنفسج أضحي حبيب الأنفس

فالسبق منها للبهار لأنه
ثم البنفسج فهو يتلوهُ لنا
يحكي لنا المسك الفتيت بلونه
والخير في الخيري إلا أنه
ويذيعه بالليل فهو بفعله
فاقت نواوير الرياض تلوناً

يأتي ونور الروض لم يتحسس
راقت ملاحظته فاصبح مؤنسي
في أرض عنبرة كلون السندس
يخفي النسيم نهاره بالمجلس
وبصنعه هذا صديق الحندس
فغدت لها مثل النجوم الكنس

وقال يونس بن مسعود الرصافي يصف الورد والخيري:

يتطلعن أنجماً بعيون
في راض كأنما الورد فيه
هب خيريتها بليل وقد نا
أظن البيت الأول في البهار إذ هي صفته وله أيضاً:

وكان سوسنه مداهن فضة
وتخال نرجسه بها تبراً على
وكان أعينه عيون حيائب
والورد تحسبه خدود كواعب
وكانما الخيري خد عضة

كالخواتم زانها التفصيل
ن عذارى تجنهن خصوص
م نهاراً كما تهب اللصوص
تحوي خلوقاً بالعبير مطيبا
قضب الزمرد حين قام مركبا
قد أبصرت يوم الندى مترقبا
كادت من التوريد أن تتلهبا
لحظ الحبيب صباية وتحببا

وصنع الفقيه أبو الحسن بن علي قصيدة يصف فيها نواوير الربيع بوصف حسن بديع ويمدح بما ذا
الوزارتين القاضي - أدام الله عزه ووصل حرزه - وأنا أذكر منها قطعة تشاكل هذا الباب. وهي بعد
صدر من القصيد:

كانما الروض لما
بكل حمراء صرف
كواكب في سماء
كان ظل الأفاحي
أو لؤلؤ فوق أرض

وشت يد المزن أرضه
وكل بيضاء بوضه
من الزبرجد محضه
مدامع مرفضه
من المها مبيضه

كأنما الورد صدر	أبقى به اللثم عرضه
أو خذ أعيد قد أخ	جلته حال ممضه
كأنما النهر نصل	جلا الصياقل عرضه
كأنما غدر الما	ء في المروج الغضه
إذا التقين مرآء	أو أكؤس من فضه
كأنما الشمس في الجو	و حين يقطع عرضه
وجه ابن عباد الند	ب حين تأمل قرضه
حوى بطول يديه	طول الثناء وعرضه

المراثي، جمع مرآة مثل مكواة ومكاوي. وهو تشبيه قوي سري جداً.
قال أبو الوليد: فلما بلغني ذلك صنعت قصيداً على ذلك النحو وأنا ذاكر أيضاً منه قطعة تليق بهذا الباب وهي من أوله:

انظر إلى النهر واعجب	لحسن مرآه وأرضه
قد حل بين رياض	من النواوير غضه
فيها بهار بهي	بدا فزين أرضه
كأنه جيد تبر	يلوح في طوق فضه
ونرجس مثل لون ال	مهجور فارق غمضه
وأقحوان أنيق	بروده مبيضه
قد طرزتها بتبر	عين الندى المرفضه
وباقلاء قد أبدى	بنوره الحسن محضه
كأنما هو خال	بخد بيضاء بوضه
كأنما النهر أفق الس	ماء عائق أرضه
وقد كسا عدوتيه	من الأزاهر مخضه
كما ابن عباد الند	ب قد كسا الصون عرضه
سمح على المال فظ	دأباً يجدد فضه

له من الجاه حظ

على التواضع عضه

فلما أشدته القاضي - أبقاه الله - سر سرور متشيع في غذي إنعامه، وربّي أيامه، وأمرني باستحضار صاحب الشرطة أبي بكر بن القوطية، والأديبين أبي جعفر بن الأبار وأبي بكر بن نصر وأمرهم عنه - لا زال ماضي الأمر - بالعمل في ذلك المعنى على العروض والقافية، فلم أقدم شيئاً على استحضارهم، وإيراد ما أمرني به عليهم. فصنعوا في ذلك من ليلتهم أشعاراً رائعة السمات، فائقة الصفات، فمن ذلك شعر أبي بكر بن القوطية وهو من أوله:

كسا الدرانك أرضه

بشاطيء الواد نهر

وبعضها مبيضة

خضراً وصفراً وحمراً

من النواوير غضه

نمارق وزراب

بيضاء غراء بضه

فالورد وجنة خود

أبقى به الهشم عضه

كما البنفسج خد

حازت من الحسن محضه

والياسمين نجوم

تجل به الطرف ترضه

روض بديع متى ما

فليس يستطيع نهضه

تقيد اللحظ حسناً

د الكريم وعرضه

حكى سجايا ابن عبا

راض به لو أمضه

قاض على الحق ماض

أن يحسن الدهر خفضه

اسم ابتداء تعالى

أراد أنه رفيع القدر، لم تقدر خفضه نوب الدهر، وهو معنى كالسحر. ومن شعر أبي جعفر بن الأبار وهو من أوله:

والمح من النور غضه

لا ترض للحظ غضه

فصل بلحظك عضه

خد الربيع تبدى

رواؤها واقتضه

شقائق شق قلبي

خريدة مفتضه

كأنما الأرض منها

كأنما الحزن مضه

ونرجس متغاض

يرنو بطرف كحيل	كمن يحاول عضه
وسوسن إن تشمه	فكالوذائل بضه
أو ألسن الدر صيغت	أو الطلى المبيضه
والأقحوان نجوم	ليست ترى منفضه
كانت ختاماً عليه	منه كمائم غضه
فحاول الجو فضاءً	بفضة الطل فضه
لم يضحك الروض إلا	دموعه المرفضه
ما زال يولى فيولي	من كل ود محضه
حتى إذا الورد حبي	وعارض المسك عرضه
أبدى علائق حمراً	إزارها منفضه
كأنما المزن جيش	يحاول الأفق عرضه

ثم دخل إلى المدح من هنا دخولاً مستحسنًا فقال مخاطباً لمدوحه:

كأنما البرق فيه	على اجتدائك حضه
كأنما الرعد قصفاً	بكم يهدد ومضه
كأنما الريح تبغي	لبعض شأوك نهضه
كأنما البحر عاف	إليك قد شد غرضه
ومد بالنهر كفاً	لكي تعجل قرضه

قوله: ما زال يولى أراد يتعاهد بالولي وهو مطر الربيع ويولي الثاني: هو المعروف يسدى إليه، وقوله: عارض المسك عرضه، العرض: اليح يقال: فلان طيب العرض، ومنتن العرض أي الريح. والعرض أيضاً: وادي اليمامة، وكل واد عرض. والعرض أيضاً: ما ذم به الإنسان أو مدح. وقوله: قد شد غرضه الغرض: حزام الفرس، ومنه الغرضة. ومن شعر أبي بكر بن نصر، وهو من أوله أيضاً:

أما ترى الأرض خضرا	ء بالأزاهر غضه
كأنها في ملاة	من الزبرجد محضه
وفوق ذلك نور	يعانق البعض بعضه
من نرجس ذي جفون	دموعها مرفضه

مصفر لون كصب
لحظ لجين ولكن
والسوسن الغض نور
كأنه ضاحك عن
مفلجات طوال
وللنوائر عرض
غض وبض ولكن
الأس أدوم برءاً

به غرام أمضه
على صفا التبر عضه
حمى عن الذم عرضه
عوارض مبيضه
تلبست بالفضه
والورد آخر عرضه
لم ينصف الدهر غضه
والورد أسرع مرضه

ومن المدح:

جاور نداء تصادف
ما أضمر الكفر إلا
وإن عصاه مناو
ولو تحصن منه

من طيب العيش خفضه
من بات يضممر بغضه
فما يني أن يفضه
برأس رضوى لرضه

ثم إن الوزير الكاتب أبا الأصبع بن عبد العزيز عرف ذلك فصنع شعراً على هيئتها في المعنى والغرض،
ومنه:

يا من تأمل روضاً
وعاين الحسن منها
فالأقحوان بياض
والنرجس الغض تبر
والورد ماء ونار
ضدان في صحن خد

به النواوير غضه
قد زين البعض بعضه
كأنه سمط فضه
في صفرة منه محضه
سالاً على وجه بضه
قد ألفا بعد بغضه

والنهر سبك لجين
جری فزین أرضه

ومن المدح:

عدا ويهجر غمضة

فأجمل الله قرضة

صفا لمن رام خوضة

والدهر فيها كغمضة

قاضي يكافح عنا ال

أسدى وأولى جميلاً

أيامه الغر ماء

فالعمر فيها قصير

وهذا البيت غاية، ووصف الورد نهاية، وإن كان معروفاً في وصف الحدود فقلبه إلى وصف الورد مما أحسن فيه، وأغرب به.

ولما أكمل أبو الأصبع إنشاد هذا الشعر أمر القاضي - أعزه الله - والذي عبده الناصح له دأبه الحسن فيه ظاهره وغيبه بالجلوس بين يديه ثم أمل بديهة عليه:

مقالة لتمضة

ي الذي وصفته لم أرضه

بأكؤس من فضة

صرف النضار ومحضة

ت في خواتم فضة

ن في المها المبيضة

بالخمر في كف بضة

من فضلها فيه بعضه

أبلغ شقيقي عني

بأن وصف الأفاح

هلا وصفت الأفاحي

قيعانها ملابس

أو لا فصفير اليواق

أو النجوم تساقط

أو لا فجام مهاة

قد باكرته وأبقت

قال أبو الوليد: سمعت أبي وأبا الأصبع يقولان: والله ما أكمل إملاء الأبيات بتلك التشبيهات الرائقة، والصفات الرائعة إلا ونحن قد بهتتا من سرعة بديهته، وقدرة فكره على تهذيب قوافيها، وتهذيب معانيها في أسرع من لا في اللفظ، وأعجل من رجوع اللحظ، والمعني فيها، والمردود عليه بما هو الوزير أبو الأصبع في وصفه المتقدم للأفاحي حين قال:

كأنه سمط فضة

فالأقحوان بياضاً

لأنه وصف بياضه ولم يصف صفرتة، فجمعها القاضي - أعزه الله وأحسن ذكراه - بتشبيهات كلها مستول على غاية الكمال، مستوف نهاية الجمال. ولو وقع تشبيهه من تلك التشبيهات لموسوم بهذه الصناعة، متخذ لها كالبضاعة، بعد إعمال فكره فيه وإشغال ذهنه له، لكنه مستندراً مستغرباً، فكيف باجتماعها على حسنهما وانطباعها له - أعزه الله - بديهة مع كثرة اشتغاله بالفرائض عن هذه النوافل التي

لا يتحلى بها، ولا يتجلبب بجلباها.

قال أبو الوليد: وهذه القطعة كان يجب أن تكون باب القطع المنفردة لأنها في الأفاحي على حدة. لكني لو فصلتها من الشعر الذي اتصلت به، والمعنى الذي وقعت فيه لكنت مفرقاً بين الطرف وحوره، والحد وخفزه، ففيها من التشريف لمن خوطب بها، وعني فيها ما يبقى في نسله وينيء عن فضله. وقال أبو الحسن علي بن أبي غالب في المعنى الأول والقافية والعروض موصولاً بمدح أبي - أطال الله في عمره - وأبقى علي ستره -:

ض واهجرن كل غمضة

نبه جفونك للرو

جفن الذي كان غضة

قد نبه الطل منه ال

حبيب حاولت غضة

من بين ورد كخد ال

سوالف الغيد بضة

وسوسن قد حكى لي

د جفنه أن يغضة

ونرجس منع السه

قلى الحبيب وبغضة

كلون صب تشكى

جماجماً منه غضة

ومن بهار يدلي

محدث لم يرضه

كأنه معرض عن

ر في مداهن فضه

كأنه نقر التنب

وبعد أبيات دخل إلى المدح، فقال: يعني الروض:

معتق المسك محضة

كأنما ضمننت من

ن عامر الندب بعضه

فأشبهت من طباع اب

وأنشدني بنفسه أيضاً أبو الحسن بيتين مرماههما رشيق، ومغزاهما دقيق، في الخيري والنيلوفر، وهما:

نيلوفر الغض عليه رقيب

كأنما الخيري حب غدا الن

بالليل لاقاك بنشر وطيب

فهو إذا طبق أجفانه

وأنشدني أيضاً لنفسه وصفاً في السوسن والباقلاء حسن التشبيه أبداع وأغرب فيه وهو:

كؤوس لجين لم تشن بنبال

ومن سوسن غض النبات كأنه

سوالف غيد قلدت بلأل

إذا ما بدا فيها الحباب حسبتها

شنوف لجين ضمخت بغوال

ونور نبات الباقلاء كأنه

ولأبي بكر بن نصر وصف أكثر نواوير الربيع في قصيد بديع حسن التشبيهات غريب الصفات مدح به
أبي - أبقاه الله لي - فقال يخاطبه بعد أبيات:

أسلالة من عامر سلني عن ال
لله نيسان ففيه تم ما
أما البقاع فإنها جادت لنا
كالأقحوان بديهة فاسمع له
أنوار تحصل عندك الأنوار
قد كان قبل بدا به آذار
بشموس نور بينها أقمار
في الوصف ما فيه اللبيب يحار

هو ضاحك الأسنان لما أن بكت
فتراه يبسم عن ثنايا فضة
وشقائق النعمان قمص أشبعت
وكأنها وسط البقاع وقد علت
وإذا تأملت البهار تأملاً
قضب الزمرد مورقات فضة
والنرجس الغض الأنيق يغض أل
مترقرق بحباب ظل مثلما
واعجب لخير الرياض فإنما
بالليل للسمار ينشر نشره
فإذا أضاء الصبح أخفى نشره
والسوسن الفينان صفة فإنه
وكأنما صرف اللجين بروده
وإذا دنا للأنف من مستنشق
وإذا ذكرت الورد فاعلم أنه
متدثر بغلائل حمر الحلى
طيب لأنفاس النفوس ومنظر
عين السماء ودمعها مدرار
تبدو إليك لثاتهن نضار
في حمرة فلها بذا إيثار
قضببان آس في ذراها نار
أيقنت أن المسك منه معار
ولها النضار مخلصاً نوار
حافظاً مراضاً ما لها أشفار
بدرت دموع للمحب غزار
هو بين أنوار الرياض خيار
لينال ردع نسيمه السمار
وتمزقت من دونه الأوطار
غض تكاد تذيبه الأبصار
منه شعاع لاصق ودثار
فله به من رده آثار
للنور أجمع في الرياض منار
تتجاب دون جيوبه الأزرار
للعين إلا أنه غرار

أما وصفه البهار فهو كوصف أبي عمر القسطلي له، ويمكن أن يأخذه أو يوافقته، وقول أبي عمر فيه:

غصون الزمرد قد أورت
لنا فضة نورت بالذهب

وسياتي في بابيه مع أشكاله وأمثاله. وأنشدني أبو بكر بن نصر وصفاً مستحسناً في نواوير عدة وأزاهير جملة موصولاً بمدح ذي الوزارتين القاضي - أيد الله يده وحصد من حسده - وهو من جملة قصيد مطول:

وقد راقني من يانع النور فاقع
وقان وأحوى حالك اللون أسود
غلائل خير وأقباء سوسن
وقمصان نسرين يروق توقده
وكم سبط للنور يسطع نوره
تمر به ريح الصبا فتجده
إذا الأقحوان الغض أبدى تيسماً
تبدى من الورد النضير تورده
ويزهى الشقيق العصفري بلونه
إذا فاقع الحودان جاد تولده
وما الخرم الكحلي إلا كأنه
من الحسن طرف جال في الجفن إثمده
ومن نرجس نضر يروقك دره
وياقوته السامي به وزبرجده
وكم للربيع الطلق نوراً منوراً
تنتجه أيدي الحيا وتولده
كما ولد الإفضال في حمص والندی
سليل ابن عباد الجواد محمده
ليعتمد الورد بحر يمينه
فذلك بحر طامح الموج مزبده

قوله: ومن نرجس يعني البهار، وصفته على ذلك دالة، وياقوتة السامي لو أمكنه أن يذكر لونه فيقول: المصفر أو نحوه لكان أتم إذ ألوان اليواقيت كثيرة لكنه اكتفى بشهرة الموصوف. وهذا للشعراء كثير. ومن اللباب في هذا الباب رسالة كتب به الوزير أبو حفص أحمد بن محمد بن برد إلى الوزير أبي الوليد بن جمهور وصف فيها نواوير خمسة، وغرضه تفضيل الورد بينها وتقديمه عليها بصفات كلها حر الألفاظ، وتشبيهات جميعها حور الألفاظ، والرسالة: أما بعد يا سيدي ومن أفديه بنفسي، فإنه ذكر بعض أهل الأدب المتقدمين فيه، وذوي الظرف المعتنين بملاح معانيه، أن صنوفاً من الرياحين وأجناساً من أنوار البساتين جمعها في بعض الأزمنة خاطر بنفوسها، وهاجس هجس في ضمائرها، لم يكن لها بد من التفاوض فيه والتحاور، والتحاكم من أجله والتناصف، وأجمعت على أن ما ثبت في ذلك من العهد، ونفذ من الحلف، ماض على من غاب شخصه، ولم يأت منها وقته فتخيرت من البلاد أطيبها بقعة، وأخصبها بجمعة، وأظلمها شجراً، وأغضرها زهراً وأعطرها نفس ريح، وأرقها دمع ندى. ثم أخذت مجالسها

وانبرت على مراتبها وقام قائمها فقال:

يا معشر الشجر وعامة الزهر، إن اللطيف الخبير الذي خلق المخلوقات، وذراً البريات باين بين أشكالها وصفاتها، وباعد بين منحها وأعطياتها، فجعل عبداً وملكاً وخلق قبيحاً وحسناً. فضل على بعض بعضاً حتى اعتدل بعدله الكل، واتسق على لطيف قدرته الجميع، وأن لكل واحد منا جمالاً في صورته، ورقة في محاسنه، واعتدالاً في قده، وعبقاً في نسيمه، ومائية في ديباجته قد عطفت علينا الأعين، وثبت إلينا الأنفس وأصبت بنا الأكف، وأزهت بمحضرنا المجالس حتى سفرنا بين الأحبة، ووصلنا أسباب القلوب، وتحملنا لطائف الرسائل، وحيينا اللهو، واحتضنا السرور، وأخذنا جعالة البشرية، وأكرمنا بتزل الرفادة، وأسنت لنا صلة الزيادة، وصيغ فينا القريض، وركبت على محاسننا الأعاريض، فطمح بنا العجب، وازدهانا الكبير، وحملنا تفضيل من فضلنا، وإيثار من آثرنا على أن نسينا الفكرة في أمرنا، والتمهيد لعواقبنا، والتطيب لأخبارنا، وادعينا الفضل بأسره، والكمال بأجمعه، ولم نعلم أن فينا من له المزية علينا، ومن هو أولى بالرياسة منا، ومن يجب له علينا التحرج ومد اليد بالمبايعة، وإعطاء مجهود المحبة، وبذل ذات النفس، وهو الورد الذي إن بذلنا الإنصاف من أنفسنا، ولم نرتكض في بحر عمانا، ولم نخل مع نزع هوانا، دنا له، ودعونا إليه، واعترفنا بفضله، وقلنا برياسته، واعتقدنا إمرته، وأصفينا محبته، فمن لقيه منا حياه بالملك ووفاه حق الإمامة، ومن لم يدرك زمن سلطانه، ولم يأت على عدان دولته، اعتقد ما عقد عليه، ولبي إلى ما دعي إليه. فهو الأكرم حسباً والأشرف زمناً، والأتم خصالاً، والذي إن فقدت عينه لم يفقد أثره، وغاب شخصه لم يغب عرفه، والطيب إليه كله محتاج، وهو عن كيفه مستغن، وهو أحمر والحمرة لون الدم، والدم صديق الروح، وصيغة الحياة، وهو كالياقوت المنضد في أطباق الزبرجد عليها فرائد العسجد. وأما الأشعار فبمحاسنه حسنت، وباعتدال جماله وزنت، وإننا ما نعتقد إلهامنا إلى هذه المحمودة، واستنظافاً من دنس تلك المذمة إلا من أجل النعم المقسومة لنا والأيادي المتصلة بنا. وكان ممن حضر هذا المجلس، وشهد هذا المشهد من مشاهير الأزهار، ورؤساء الأنوار النرجس الأصفر، والبنفسج والبهار والخيري النمام.

فقال النرجس الأصفر: والذي مهد لي حجر الثرى، وأرضعني ثدي الحيا، لقد جئت بما أوضح من لبة الصباح، وأسطق من لسان المصباح، ولقد كنت أسر من التعب له، والشغف به، والأسف على تعاقب الموت، والرجعة دون لقاءه ما أنحل جسمي، ومكن سقمي، وإذ قد أمكن البوح بالشكوى فقد خف ثقل البلوى. ثم قام البنفسج فقال: على الخبير سقطت أنا والله المتعب له، الداعي إليه، المشغوف به كلفاً، المغضوض بيد النأي عنه أسفاً، وكفى ما بوجهي من ندب وبجسمي من عدم نهوض، ولكن في التأسى بك أنس، وفي الاستواء معك وجدان سلو. ثم قام البهار فقال:

ثم قالوا: تحبها؟ قلت: بهراً

عدد النجم والحصى والتراب

لا تنظرن إلى غضارة منبتي، ونضارة ورقبي، وانظر إلي وقد صرت حدقة باهتة تشير إليه، وعيناً شاخصة تندى بكاء عليه:

ولو لا كثرة الباكين حولي

على إخوانهم لقتلت نفسي

ثم قام الخيري النمام فقال: والذي أعطاه الفضل دويني، ومد له بالبيعة يميني، ما اجترأت قط إجلالاً له، واستحياء منه. على أن أتنفس نهاراً، أو أساعد في لذة صديقاً أو جاراً. فلذلك جعلت الليل سترًا، واتخذت جوانحه كناً. فلما رأته استواء آرائها على التفضيل له، واعتدال مذهبها في الدعاء إليه قالت: إن لنا أصحاباً، وأشكالاً وأتراباً، لا نلتقي بها في زمن، ولا نجاورها في وطن، فهلم فلنكتب بذلك كتاباً، ولنعتقد به حلفاً، ولنضع من شهادتنا ما يحتمل في الأفاصي والأداني عليه.

نسخة كتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما تحالفت عليه أصناف الشجر، وضروب الزهر، وسميها وشتويها، وربيعها وقبضيها، حيث ما نجمت من تلة أو ربوة، وتفتحت من قرارة أو حديقة، عندما راجعت من بصائرنا، وألهمت من رشادها، واعترفت بما سلف من هفواتنا، وأعطت للورد قيادها، وملكته أمرها، وأخلصت له محبتها، وعرفت أنه أميرها المقدم بخصاله فيها، والمؤمر بسوابقه عليها، واعتقدت له السمع والطاعة والتزمت له الرق والعبودية، وبرئت من كل نور نازعته نفسه المباهاة له، والانتزاع عليه في كل وطن، ومع كل زمن، فأية زهرة قص عليها لسان الأيام هذا الحلف، فلتعرف أن رشادها فيه، وقوام أمرها به، ولتحمد الله كثيراً على ما هداها إليه، واستنقذها من الضلال بتبصرته، ولتشهده على اعتقادها، والله شاهد على الجميع. شهادة النرجس:

شهد النرجس والله يرى

صحة النيات منها والمرض

أن للورد عليه بيعة

أكدت عقداً فما إن تنتقض

شهادة البنفسج:

شهد البنفسج أنه

للورد عبد تملك

يسعى بقلب ناصح

في حبه مستهلك

شهادة البهار:

بصحيح ما بيدي وما يخفيه

شهد البهار ذو الجلالة عالم

للورد لا يؤتى له بشبيه

أن الإمارة في الأزاهر كلها

شهادة الخيري النمام:

قوله أبعد عنها الدرك

شهادة الخيري برأ صادقاً

أعبد والورد فيها ملك

أن أزهار الثرى أجمعها

هذا يا سيدي ما انتهى في المعنى إلي، ففضلك في تصفحه، والتجاوز عما وقع من زلل في نقله، فأنت السابق الذي بحري في غباره، وتهندي بمناره، ولولا علمي بموقع هذه الملح منك لم أجشمك مؤونة النظر فيما كتبت منها لك إن شاء الله.

قال أبو الوليد: إسماعيل بن محمد بن عامر: ولي رسالة أردفتها على هذه مشتملة على وصف سبعة أنوار على ما انتهت إليه غاية اختياري وغرضي في الرد بتفضيل البهار على الورد خاطبت بها ذا الوزارتين القاضي سيف الحق الماضي - كبت الله أعداءه، وأدام عليهم إعداءه - وهي: يا مولاي الذي رقه لي شرف، وجوده علي سرف، ومن أبقاه الله لرفع شأن ودود، ووضع شأن حسود. كان اجتماع بعض النواوير واتفاق طائفة من الأزاهير على تقديم الورد عليها، وتفضيله بينها، وتخيره للخلافة منها ما قد وقفت عليه ونظرت إليه مما عني بجمعه وانفرد لذكره أبو حفص بن برد الوزير الكاتب، وسراج الأدب الثاقب. وكانت النواوير المتفقة عليه، والداعية حينئذ إليه: البنفسج والخيري النمام والبهار، والنرجس الأصفر، وكتبت كتاباً إلى صنوف الأنوار وضروب الأزهار تأمرها بالوقوف عند ما وقفت، والاتفاق على ما اتفقت.

فأول من رأى الكتاب، وعان الخطاب، نواوير فصل الربيع التي هي جيرة الورد في الوطن، وصحابته في الزمن، فلما قرأته أكبرت ما فيه، وبت على هدم مبانيه، وبعض معانيه، وعرفت الورد بما عليه فيما نسب إليه من استحقاقه ما لا يستحقه واستتهاله ما لا يستأهله، وقالت له: من مدح أمراً بما ليس فيه فقد بالغ في هجائه وبينت ذلك له بياناً رأى الرشد فيه عياناً، وجمعت على مجاوبة مكاتبيها، ومراجعة مخاطبيها بما بدا لها من سوء تدبيرها، وضعف رأيها ثم رأت أن مخاطبة من أخطأ تلك الخطية، وأدن نفسه تلك الدنية، تدبير دبري، والتخلي عنه رأي غير مرضي. فكتبت إلى الأقحوان والخيري الأصفر إذ هما يحاوران تلك في أوطانها ويصاحبانها في أزمانها.

ونسخة الكتاب

من نواوير فصل الربيع الأزهر إلى الأقبان والخيري الأصفر:

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلت إلينا بيعة اشترى بها من سعى فيها، وفغر عن فيها، "خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين" ولو استحق الورد إمامة، أو استوجب خلافة، لبادر بها آباؤنا، ولعقدها أوائلنا التي لم تنزل تجاوره في مكانه، وتجيء معه في أوانه.

وأما من عقد تلك البيعة، وكتب تلك الصحيفة فلم ير له قط صورة ولا تلا من ذمه سورة، فإذا قد جهلت قدره، ولم تعلم أمره هلا شاورت مصاحبيه واستخبرت محتربيه حتى تقف على حقيقة خبره، وتعلم جليلة خبره، فبأي شيء أوجبت تقديمه، ورأت تأهيله لما غيره أشكل له، وأحق به، وهو نور البهار البادي فضله بدو النهار، والذي لم يزل عند علماء الشعراء، وحكماء البلغاء مشبهاً بالعيون التي لا يحول نظرها، ولا يحور حورها، وأفضل تشبيهه للورد الخد عند من تشيع فيه، وعني به، وأشرف الحواس العين، إذ هي على كل منول عون، وليس الخد حاسة، فكيف تبلغه رياسة؟:

أين الخدود من العيون نفاسة ورياسة لولا القياس الفاسد؟

وأصح تشبيهه للورد وأقربه من الحق قول الحكيم ابن الرومي في شعره الطائي. لقد وافق ووفق وشبهه وحقق، فقفا - وفقكما الله ولا أخلاكما من هداه - بالنواوير المخاطبة لنا، المسخنة لأعيننا، واعرضنا عليها مطلبنا، وبيننا لها مذهبنا، وأنا البهار مفرداً تأنياً يقيمه ويقعده، ويقصده فيقصده، على مشاركتة على نفسه وسعائته في إبطال حقه، فلولا استجابته لها، وكونه معها، ما تحصن لتلك مراد، ولا تحسن لها مراد، وحياه عنا بالسلام الأثير بعد الملام الكثير، والله العظيم حقه الواسع رزقه، لو جاورناه في وطن، أو صحبناه في زمن، لبايعناه منذ مدة مبايعة لعبيد، ونفديه لفضله علينا بالطريف والتلبد، وراجعانا بعد هذا بالمذهب التي تبني عليه، وتجري إليه فإن وافقت لم يشذ علينا من النواوير إلا من لم تشهر عينه، ولا يعد فينا صيته وأينه مع أن جماعتنا تعلم فضل ما صنعناه، وتوالي من وليناه، وإن خالفت لم تستضر مخالفتها ولم تضطر إلى مخالفتها، فنحن حل النواوير، وعمدة الأزاهير، نعقد للبهار ونقدمه على جميع الأنوار.

فوصل كتابها إليهما، وورد خطاها عليهما وعندهما البنفسج والخيري النمام، والنرجس مشاورة لهما، ومستمدة بآرائهما في الخروج عما دخلت فيه، والتخلص مما اكتسبت به سوء الأثر. وقبيح الخبر من تقديم الورد على البهار على أنه ملك الأنوار. والخيري الأصفر والأفحوان يكثران تأنيبها، ويسفهان أراءها، ويجددان الشكر لله على استنقاذهما مما ورطها فيه، وتأخيرها عما ألحقها به.

فلما وصل كتاب النواوير الربيعية وهي متصلة من تلك الخطيئة وقع منها مواقع الماء من ذي الغلة الصادي، وقالت: الآن يصقل من أذهاننا الصادي. وأعاد الخيري الأصفر والأفحوان التأنيب لها والتعديد عليها فقالت: لا تكثروا لومنا، ولا تطيلا تأنيبنا، فلو لم تكن لنا سقطة، ولا نسبت إلينا غلطة، لخرجنا عن الأمر المعلوم والحد المعروف، فلا بد لكل من تدبير دبيري ورأي غير مرضي، وقد قيل: اللبيب من عدت سقطاته، والأريب من حصلت هفواته. إذ قد استيقظا من نومة الجهل، فأغمد عنا سيف العدل، ووالله إننا لأحقاء بالتأنيب، أحرىء بالثريب، إذ عجلنا عظيمة لم نعلم النظر فيها، وأنفدنا كبيرة لم نعان عويص معانيها، وقديماً حمد التأني وذمت العجلة. ومن أمثالهم: رب عجلة تهب ريثاً ورحم الله القائل:

وقد يكون مع المستعجل الزلل

لكننا نصفق قفا الحوبة بيد التوبة، ونجلو دجا الاقتراف بصبح الاعتراف. فسر الخيري والأفحوان بما بدا منها من إقرار بذنوبها، والاعتذار من خطاياها وبنيت معاً على مجاوبة الأنوار الربيعية بإنقاذ ما رغبته وإكمال ما ابتدأته. ثم خرجت بأسرها إلى البهار معذرة إليه متصلة مما جنته عليه، وسألته العفو عن ذنوبها، والإمساك عن تأنيبها، والطاعة لها بالتقدم عليها، والتملك لجميعها. فأجابها إلى رغبته وأطلبها في طلبتها، وأنشدها قول بن المعتز:

دية الذنب عندنا الاعتذار

ثم قرأ عليه الأفحوان والخيري الأصفر كتاب النواوير الربيعية إليهما، فلما وصلا إلى الفصل الذي سألوها فيه التعديد عليه والتأنيب له قال: والله ما دخلت معهم فيما أحدثوه، ولا تابعتهم على ما صنعوه إلا حياء من تعريفهم بما لا يجمله الجاهلون، ولا يغلط فيه الغالطون، وليس من ترك حقه ملوماً، إنما الملموم من تسور على غير حقه، وادعى سوى واجبه، ولولا بدو ذلك لجميعكم، وظهوره إلى ربيعكم ووضعكم، ورغبتني في استنقاذكم من رق الضلالة، وفككم من ربق الجهالة، ما أطلعت فيما رغبتموه، ولا صبرت لما أردتموه، ولا عرفتمكم من فضلي بما سكت أولاً عليه، ولا نديتكم من حقي إلى ما لم أندبكم قبل إليه. فقالت: مثلك انقاد إلى رغبة مؤمليه، وأيد سالف أياديه، وغفر ذنوب عشيرته، وصفح عن حيرته،

وجرى على أخلاق الملوك في الصفح عن المملوك. وجاوب الأفحوان والخيري الأصفر نواوير الربيع الأزهر، بما نفذ من حسن القدر ونسخة كتابهما:

بسم الله الرحمن الرحيم

وصل إلينا كتابكم، وورد علينا خطابكم تبنون فيه ضعف ميز مقدمي الورد ومبايعيه، وسوء رأي موليه ومؤمليه، وتلك قصة غابت عنا، وبعدت بفضل الله منا، وقد ظهر ضعفها إلى من تولى، وتبين سخفها لمن ولى، وإذ وقفتموها فوافقتموها فهي النعمة الجزيلة، والمنة الجليلة، ونحن على مبايعة البهار، والكتاب إلى جميع الأنوار. وسيصل إليكم ويرد عليكم. فلما نفذ هذا الكتاب إلى النواوير الربيعية بتمام القضية المرضية قالت للبهار: من تمام كرمك، وكمال نعمك إباحة العقد لك بالاتفاق عليك، وإنقاذه إلى صنوف الأنوار وضروب الأزهار. فأباح لها ذلك وكتبت بين يديه هنالك:

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب مبكري الأنوار

هذا كتاب مبكري الأنوار، وسابقي الأزهار إلى من غاب عنها بشخصه، ولم يحضرها بنفسه. أما بعد: فإننا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو مستنقذنا من الفعلة القبيحة والذنية الصريحة التي نفذ بها كتابنا إليكم، وورد بإكمالها خطابنا عليكم، وتلك غلطة ظهرت لكم، وسقطة لم تغب عنكم، ولعمر الحق الذي إليه نرجع، وبه في أمرنا نقطع، لقد ظهر إلينا فساد ما خصصنا عليه، وقبح ما ندبنا إليه، بعد إنقاذه وإكماله، والتدبير لجميع أحواله، ولم نسقط إلا بتعجيل التدبير، ولا خير في الرأي الفطير، وإذ قد اجتمع الرأي من سرائكم ومنا، وصدر الاتفاق عن كبرائكم وعنا، فهي النعمة التي بها تنتظم أمورنا، ويراعى أميرنا، وقد بايعنا البهار الباهر جماله، والظاهر كماله على ما رضيتم به، ورجبتم فيه، وقد وضعنا شهادتنا على صدق من نياتنا. وكان كاتب الصحيفة البنفسج: فليل له: ابدأ شهادتك.

شهادة البنفسج

النثر: والله ما أضعف أمني، وضاعف عللي، وأوهن مني السوق، وقللني في كل سوق، إلا الدحول في تلك الوحول والبعد عن الخلق الكريم، والصراط المستقيم، في تأخير هذا الملك العظيم، الذي بتقديمه الآن أرجو أن دائي قد لان: والنظم له:

أما البنفسج فهو يشهد أنه
متبرئ من بيعة الورد التي
متنم مما جنى متصل
لم يبر منها داؤه المتأصل
متبين فضل البهار وعالم
أن البهار هو المليك الأفضل

شهادة النرجس

النثر: تبا لتلك الفعلة الدميمة، والقضية الدميمة التي جلبتني جلباب السقم، وسربلتي سربال الهرم، ولولا
بداري إلى نسخها وتحلي في فسحها، لذهب نفسي الأرج الذي به أبتهج. والنظم له:

أشهد النرجس إشهد محق
ورأى أن البهار المجتلى
أن بدر الورد في الملك محق
في سماء الحسن بالملك أحق
فمتى كذب قول أبداً
قيل في قولته هذي صدق

شهادة الخيري

النثر: والله ما أرق بصري، وأرق بشري، وأغاض نهاراً ماء بشري، وأغمد فيع سيف نشري، إلا معصية
الحق في تلك القضية، وطاعة الهوى في تلك الخطية، فالحمد لله الذي أحال الحالة الموبقة لي لا محالة.
والنظم له أيضاً:

أشهد الخيري أن الخير في
موقناً أن البهار المرتضى
نقض ما أخطأ فيه أولاً
بهر الأملاك حالاً وحلى
فهو الموقظ أنوار الربا
من سنات سنها فيها البلى

شهادة الأحقوان

النثر: إن رمت أداء شكر الله على فضله المتناهي في استنقاده لي من تلك القبيحة، والذنية الصريحة لم أؤد
القرض، ولا استطعت القرض، فالإقرار بالعجز نهاية، والاعتراف بالقصور غاية، فاستثنائي هناك،
وسكوني إذ ذاك أنبتا ورقي ورقا، وجعلنا فلكي فلقا. نظمه:

أشهد الأحقوان أن جناه
قائل قول من تبرأ قدماً
كافر بالذي سواه جناه
من هوى من قضى عليه هواء

شهادة الخيري الأصفر

الث: الحمد لله الذي عصمني من تلك الدنية، ولم يخيبني عن هذه النية، وبها بقيت غضارتي، وتأكدت نضارتي، ووهب لي الذهب الإبريز ملبسا، والمسك النفيس نفسا. والنظم له:

أصفر الخيري يشهد
ويرى أن البهار ال
ملك يقظان يأتي
أن عقد الورد قد رد
منتقى أعلى وأمجذ
وصنوف النور هجد

هذا يا مولاي ما استطعت عليه، وانتهت مقدرتي إليه، فإن وافقك فبفضلك المشهور، أو كانت الأخرى فبالباع المترور. ولك المن على الوجهين، والطور في الحالتين. أبقاك الله لأحوالنا تصلحها ولآمالنا تنجحها، وصنع لك، وبلغك أملك.

ولأبي جعفر بن الأبار في عدة من الأنوار أوصاف ساطعة الأنوار في رسالة كتب بها إلى صاحب الشرطة أبي الوليد بن العثماني، وكان سببها أني خرجت متترهاً في فصل الربيع لأشرف على منظره البديع، وكان أبو جعفر بن الأبار في جملة من صحبني، وخاصة من تبعني، وتخلف أبو الوليد لعذر لحقه أو جب تخلفه. فلما انصرفنا سألت أبا جعفر وصف نراهننا، وذكر راحتنا وإيراد ما اطلعنا عليه، ونظرنا إليه مما تأسف على البعد منه، والاتراح عنه. فكتب إليه بهذه الرسالة وفيها فنون الرقة والجزالة، ووصلها بمدح الحاجب - وصل الله حرمة وأدام عزته - وهي بعد صدرها: كتبت تسألني - لا خاب سائلك ولا حرم أملك - كيف كان تترهنا وتوجهنا مع أبي الوليد شاكر خلتك، وحامد صحبتك. أراد - أبقاه الله ووقاه - التتره إلى بعض ضياعه في فصل الربيع عندما أشفق من انصرامه وضياعه، وكنت في جملة من اصطحب لا في صفوة من انتخب. فأمكنك من السير غرته، والصبح قد شدخت غرته، وجبين الجو طلق وغلائل السماء رزق، وحاجب الشمس متطلع، وجيد الأنس متطلع، وريق العيش خصر، وبرد الأرض خضر، قد فوف من الزهر، بمثل الأنجم الزهر، والرياض راضية من الحيا متبرجة بعد الحياء، أهدت لها المزن دررها، فأبدت يواقتها ودررها، وخشيت بالكتم عقوقها، فاستنفدت زمردها وعقيقها. إن حيتك بالشقائق فكاللدات الشقائق، مغلفات العصائب، منشرات الذوائب. أو بالترجس والورد فكالعيون النواظر إلى الحدود النواضر، بل ذاك صبح مشتمل على شمس أصيل وهذا خجل مستول على خد أسيل، أو سفرت عن البنفسج الأنيق، فكلابس ثوب المسك الفتيق، وكأنا كسته لعستها الشفاه، فإذا تنسمه أو توسمه المخزون

شفاه، شرقت بالطل مقلها، وضمخت بالمسك حللها، فما زلنا في أحسن مراد، وأقرب غاية مراد، من التماح يانع ذلك الزهر، حتى احتلنا قرية بشاطئ النهر، ولسان المهجير قائلة: لا تخطئكم بما القائلة، فأرحنا الجياد من البهر، ونمنا بها إلى صلاة الظهر، ثم قضينا الغرض، وشددنا الغرض، نؤم جانب الشرف متيامنين، ونقصد سمتة متبادرين، حتى أرتنا غرته جمالها، وكستنا أشجاره ظلها، فما زلنا نستعرض قراه إلى أن دعانا إلى قراه بواسطة منه ومقلة الشمس غضبضة، وحشاشتها مريضة، فأجبناه إلى رغبته وحللنا بعقوته، وبتنا نتفدى بالنفوس، ونتعاطى نخب الكؤوس، من مدام الآداب، لا من مدام الأعناب، يتضوع عنها خلوق الشيم، ويضحك عليها حباب الكرم، وربما مزجناها بماء المزاح من غير لغو ولا جناح، فما زلنا نأخذها بالأذان ونشرها بالأذهان، حتى تبسم الليل عن صبحه وقص جناح جنحه، فاشتملنا برد الائتلاف، واتفقت آراؤنا على الانصراف إلى حضرة المجد العليا، مقر عماد الدين والدنيا إسماعيل بن محمد بن عباد خير واطئ للصعيد ومرور للصعاد، من بخل نداءه وقيد البرق مداه، وضمخ الآفاق ثناؤه، وبهر العيون سناؤه، ورجح بالجبال حلمه، وأحاط بالليل علمه أدام الله له العز، ووصل له التأيد والحرز.

قوله: متتلع متفعل، من التلع وهو الإشراف يقال: تلع جيد الظبي إذا أشرف. وقوله: من الحيا وبعد الحياء، الأول منهما مقصور والثاني ممدود وهو الاستحياء وقوله: من البهر البهر: الكلل. واتدعنا: افتعلنا من الدعة، قوله: مرو للصعاد الصعاد، جمع صعدة: وهي القناة النابتة مستقيمة. قال أبو الوليد: ومما يصلح أن يكون في هذا الباب ما وقع في النواير من تفضيل وتغليب أو جرى بينها من تفاضل وتفاخر. فإن تلك القطع تشتمل على مدح نور، وذم آخر فهما موصوفان، ولم تتفرد القطعة بنور وإنما اشتملت على نورين، وتضمنت وصف شيئين، وأكثر ما وقع هذا قديماً في الورد والبهار وأنا ذاكر ما وقع إلي في ذلك المختار، وقد وقع إلي في غيرهما قليل، وكله يقع هنا إن شاء الله. فما وقع إلي في الرد على ابن الرومي في تفضيله البهار على الورد قول أبي عثمان سعيد بن فرج الجياني وقول ابن الرومي في ذلك كثير ومذهبه مشهور، وقصيد أبي عثمان رد على قصيد ابن الرومي الذي أوله:

خجلاً، توردها عليه شاهدُ

خجلت خدود الورد من تفضيله

وهو من أوله إلى آخره أعني قصيد أبي عثمان:

إلا الذي أدى العيان الشاهدُ

عني إليك فما القياس الفاسد

خجل وناحله الفضيلة عاندُ

أزعمت أن الورد من تفضيله

فحياؤه فيه جمال زائدُ

إن كان يستحيي لفضل جماله

من أن يحول عليه لون واحد
صفة كما وصف الحزين الفاقد
قطعت فليس يحيد عنها حائد
تار الفخار متوج أو ساجد
موعود عنه أو النديم الواعد
كلاً ولا ذا بالتأخر طارد
أطيّار فهو لشجوهن مساعد
في منبر بين الحدائق قاعد
ذلاً إلى عفر الثرى أو ساجد
مهلاً فما هذا سبيل قاصد
وخرمت أوله فرجس ركد
ود تود به ورد عائد
إلا وأفضلها يكون البائد
شيء سوى إبليس فيها خالد
ينهي النديم بلحظه ويساعد
والسمل طرف للأحبة راصد
يرقانها باد فأصلك فاسد
ربي الرياض كما يربي الوالد
ما كان غير الورد فيها الماجد
والنجم ناري مضيء واقد

والنرجس المصفر أعظم ربية
لبس البياض لصفرة في وجهه
والآن فاسمع للبراهين التي
الورد تيجان الربيع فأیما اخ
ولمن يكون الفضل في حكم العلا ال
مهلاً فما هو بالتقدم قائد
وانظر إذا اعتدل الزمان وغنت ال
موف على الغصن النضير كأنه
والنرجس المنحط إما راع
وجعلت للأسماء حظاً زائداً
اسم الذي فضلت إن فتشته
والورد كيف خرمته وخبنته
ودع البقاء فما ترى من جملة
يفنى خيار الخلق في الدنيا وما
والضد كل الضد قولك إنه
فأعرته عين الرقيب فللعمى
وإذا فخرت على الخدود بمقلة
ولو أن فعلاً للكواكب في الثرى
وتتازع النوار شبه صفاتها
الورد وقاد التوقد ناضر

قوله: ولمن يكون الفضل في حكم العلا البيت رد على قول ابن الرومي:

شتان بين اثنين هذا موعد بتسلب الدنيا وهذا واعد

فجعل الورد لتأخره موعداً بانقضاء الربيع والبهار لتبكيره واعداً به، ورد الجياني عليه مقنع لأن الموعود به
أجل من النذير الواعد عنه: وقوله: يفنى خيار الناس.. البيت، رد على قوله:

وإذا احتفظت به فأمتع صاحب

ببقائه لو أن حياً خالدٌ

لأن البهار يبقى بنضرتة أياماً، والورد أسرع ذبولاً. وقول الجياني: وجعلت للأسماء حظاً زائداً.. رد على ابن الرومي في قوله:

اطلب بعيشك في الملاح سميهِ

أبدأ فإنك لا محالة واجدٌ

جعل من محاسنه التسمي به عندهم، فترجس في أسمائهم كثير. وذلك لا حجة له ولا عليه. وقوله: ولو أن فعلاً للكواكب في الثرى... للأبيات، رد على بيتي ابن الرومي وهما:

هذي النجوم هي التي ربتهما

بحيا السحاب كما يربي الوالدُ

فانظر إلى الأخوين من أدناهما

شبهاً بوالده فذاك الماجدُ

شبه البهار بالنجوم. ولصاحب الشرطة أبي بكر بن القوطية في المعنى والقافية، قصيد مستول على غاية الكمال، مستوف نهاية الجمال موصول بمدح ذي الوزارتين القاضي الأجل، الرفيع المحل. وهو من أوله إلى آخره:

كسفت خدود النرجس المصفر من

حسد، وقد يذوي العدو الحاسدُ

واصفر حتى كاد أن يقضي أسي

لما رأى الورد الذي هو واردُ

هيهات للورد الفضائل كلها

وإن ادعى التكذيب فيه معاندُ

فصل القضية أن هذا ممتع

فصل الربيع، وكل نور بائدُ

يأتي ونوار الثرى متزحزح

وكذا الرئيس من المشابه واحدُ

هذا مقر للسماء بفضلها

فيما غذته به وهذا جاحدُ

وترى تباين ذاك في وجهيهما

باللون والنشر الذي هو شاهدُ

كم بين مصطنعين: هذا كافر

إفضال سيده، وهذا حامدُ

هذا له خلق العجوز وهذه

عذراء في حمر المجاسد ناهدُ

وكفى افتخاراً أن هذا نافق

غضاً ومبتذلاً وهذا كاسدُ

لو لم يكن للورد إلا أنه

يفنى ويبقى ماؤه المتعاهدُ

وله منافع لا تجمل كثرة

ومرافق مشكورة وفوائدُ

والنرجس المصفر ليس بنافع

ميتاً ولا في الروض إذ هو وافدُ

هذا عقيم لا يشاد بذكره

أبدأ وعقب الورد باق خالدُ

أخوان مقرونان لم يتنازعا
شبهاً وبينهما إزاء تالد
هذا يبشر بالحياة وذاك ين
ذر بالممات إذ أتاه العائد
أين الحياة من الممات نفاسة
ورياسة لولا القياس الفاسد

ومن هنا دخل إلى مدح ذي الوزارتين القاضي الجليل فقال:

يا أيها القاضي المصطفى جوهراً
والسيد النذب الشريف الماجد
احكم فإن العدل شيمتك التي
أوصى لها جد إليك ووالد
فغدوت طفلاً في المهاد وأنت للم
حكم الذي أعبى البرية ماهد

قوله: أين الحياة من الممات البيت هو لابن الرومي وأتقن الرد عليه فيه، وبيت ابن الرومي:

أين العيون من الخدود نفاسة
ورياسة لولا القياس الفاسد

وأنشد لنفسه الشيخ أبو عبد الله بن مسعود قطعة بديعة تضمنت أوصافاً مطبوعة يصف بهار، ويفضل
الورد عليه وهي:

ولابس ثوب الضنى
من حسد قد اكتأب
كأنما أحداقه
أقداح تبر منتخب
من الحيا مترعة
أجل مشروب شرب
يسعى بها محتسباً
بلا أدى ولا نصب
ساق على ساق له
تزهى بمخضر قصب
زبرجد مبهج
إذا الصبا غنت له
تكاذ ليناً ينقضب
صبا لبعض بعضه
وماس عن ثقل الحبيب
فيلنقي ويصطحب
يقول للورد: أنا
بر حبيب يقترب
قال له الورد: لقد
أخطأت يا من لم يصب
أنت إذا ما صحفوا
وأنصفوا بيت خرب
أنا الذي لم أخلق
ما قلته ولم أحب
أشبه شيء بالخدو
د الزهر ريعت من كئب

وَأنتَ عین دهرها	في مثل دهر قد كلبُ
فانشعبت أسرابه	خوفاً بدمع منسربُ
واصفر من هم كما	يفعل مخصوم غلبُ
الفضل للورد وإن	أبى علي وحربُ
طيب وطب وشذاً	ومنظر ينفي الكربُ
سلطان الأنوار علي	رغم الغبي المضطربُ
كما ابن عباد حمى ال	إسلام سلطان العربُ

قوله: بر حبيب هو تصحيف نرجس، وبيت حرب تصحيفه مقلوباً أيضاً. وإن أبي علي هو ابن الرومي لما فضل البهار على الورد. وحرب مثل غضب، ومنه قيل: ليث محرب أي مغضب وقوله: طيب وطب وشذاً، الشذا: العرف والريح الطيبة. وقال بعض الأندلسيين يرد على ابن الرومي بيتيه الطائنين وأحدهما:

وقائل لم هجوت الورد معتمداً؟ فقلت: من قبح ما فيه ومن عطفه

ويقبح ذكر البيت الثاني وهو مشهور، والرد عليه للأندلسي:

لعائب الورد قل ما أنت من نمطه	قد فلت هجراً فتب في القول من غلطه
الورد خد حبيب حين تلثمه	فيغتدي أثر الأسنان في وسطه

ولأبي جعفر بن الأبار في إقرار البهار بفضل الورد قطعة حسنة السرد موصولة بمدح ذي الوزارتين القاضي سيف الحق الماضي وهي:

طلع النرجس في أكفاه	قائلاً للورد: قد برحت بي
لم تزل تورث جسمي سقماً	مبكياً عيني بدمع الحبيب
كيف خلطت وغلبت علي	سيد الأنوار يا للعجب
إنما اسمي تحت شكواي فلا	توقعوني تحت ريب الريب

أنا لولا طمعي أن نلتقي	ما أقلتني حيناً قضبي
فضله فضل ابن عباد أبي ال	قاسم القاضي قريع العرب
ملك لو لم يمجد بالثنا	قال للعالم: حسبي حسبي

قوله: إنما اسمي تحت شكواي يعني برحت بي لأن برحت بي تصحيف نرجس. وله أيضاً في تصحيفه مفضلاً للورد بيتان استولى فيهما على غاية الإحسان وهما:

يروى به لحظ عين

الورد أحسن ورد

صحفته برح بين

ونرجس الروض مهما

هذا ما انتهى إليه ذكرني في التفاضل بين البهار والورد. وكتب الوزير الكتب أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري إلى المنصور بن أبي عامر - رحمه الله - عن بنفسي العامرية يوم الأضحى سنة ثلاث وثمانين وثلاث مئة، رسالة موصولة بشعر، جمالها باهر، وكمالها ظاهر احتج له فيهما احتجاجاً طريفاً، عضده به عضداً طريفاً، وآثره على النرجس والبهار بإشارات جليلة المقدار.

والرسالة

منح الله مولاي صدق النظر، وعرفه جلية الخبر، وأطال مدته، ووصل سلامته وعزته إذا تدافعت الخصوم - أيد الله المنصور مولاي - في مذاهبها، وتنافرت في مفاخرها، فأليك مفرعها وأنت المقنع في فصل القضية بينها لاستيلائك على المفاخر بأسرها، وعلمك بسرها وجهرها، وقد ذهب البهار والنرجس في وصف محاسنهما، والفخر بمشابهتهما كل مذهب. وما منهما إلا ذو فضيلة، غير أن فضلي عليهما أوضح من الشمس التي تعلقونا، وأعرف من الغمام الذي يسقينا، فإن كانا قد تشبها في شعريهما المرتفعين إلى مولاي - أبقاه الله وأيده - ببعض ما في الأرض من جواهر الأرض، ومصاييح السماء، وهي من الموات الصامت، فأني أتشبه بأحسن ما زين الله به الإنسان، وهو الحيوان الناطق من أدوات خلقه، وأنفس ما ركب فيه من مواد حياته، مع أي أعطر منهما عطراً، وأحمد خيراً، وأكرم إمتاعاً شاهداً وغائباً، ويانعاً وذابلاً وكلاهما لا يمتنعك إلا ريثما يبدو للعيون، ويسلم من الذبول، ثم تستكره الأنوف شممه وتستدفع الأكف ضمه فأين هذه الحال من الاستمتاع بي رطباً، وادخاري في خزائن الملوك جافاً وتفضيلي على ألسنة الحكماء، وتصريفي في منافع الأعضاء، وإن فخرنا باستقلالهما على ساق هي أقوى من ساقى فلا غرو أن الوشي ضعيف، والهوى لطيف والمسك خفيف:

وليس المجد يدرك بالصراع

كما قال حكيم الشعراء، وقد أودعت - أيد الله المنصور - قوافي الشعر من وصف مشاهبي ما أودعاه من وصف مشاهبهما وحضرت بنفسي لئلا أغيب من حضرتكما. فقدبماً فضلوا الحاضر وإن كان مفضولاً

ولهذا قالوا: ألد الطعام ما حضر لوقته وأشعر الناس من أنت في شعره. ولمولاي - أيده الله - أن يعدل باختياره الصحيح، ويفصل بحكمه العدل إن شاء الله. والشعر:

شهدت لنوار البنفسج ألسن
من لونه الأحوى ومن إيناعه
بمشابه الشعر الأثيث أعاره
قمر الجبين الصلت نور شعاعه
ولربما جمد النجيع من الطلى
بصوارم المنصور يوم قراعه
فحكاه غير مخالف في لونه
لا في روائحه وطيب طباعه
ملك جهلنا قبله سبل العلا
حتى وضحن بنهجه وشراعه
أما نداه فهو صنو للحيا
في صوبه لم أعن في إقلاعه
في سيفه قصر لطول نجاده
وكمال ساعده وفسحة باعه

قال أبو الوليد: ووقع بين الوزير أبي الأصبع بن عبد العزيز وصاحب الشرطة أبي بكر بن القوطية قطعتان، يفضل أبو الأصبع الخيري، وأبو بكر البنفسج وقطعة أبي الأصبع موصولة بمدح ذي الوزارتين القاضي - حرس الله حوباءه وأطال بقاءه - وهي:

ما للبنفسج يدعي التفضيلاً
متحاملاً ويعد ذاك جميلاً
هيهات قد برح الخفاء فعد إلى
حكم التتاصف واترك التخبيلاً
الفضل للخيري إلا أنهم
جهلوا ولما يحسنوا التأويلاً
قهر البنفسج منظرًا ويفوقه
في الشم بالمسك الذكي دليلاً
ورأى التستر بالنسيم لصبحه
ظرفاً فعطل صبحه تعطيلاً
وإذا أتى الليل البهيم بنشره
أبدى له للزائرين قبولا
كمهذب الأخلاق يهجر بالضحي
خلاً ويدني بالمساء خليلاً
أو شارب ترك الصبوح تحفظاً
فإذا أتى الليل أساغ شمولا
هو فاتك الأفعال يدرع السرى
وتراه يطلب بالنهار خمولا

والخير في الخيري في اسمه
هو فاضل فاستأهل التفضيلاً
يا أيها القاضي الذي من عدله
أضحى الزمان بغرة محجولا
أنت الشهيد له وملك حاكم
عدل وحسبك شاهداً مقبولا

فاحكم على من قد تعاطى ظلمه
الرأي منك مهذب مستحکم
من كان إسماعيل والده الرضى
أنتم حلي للزمان محسن

واعقد بما تقضي له تسجيلا
والعلم فيك وتحكم التأويلا
فكفاه فخراً أن يكون سليلا
قد كان عطل قبلكم تعطيلا

وقصيد أبي بكر بن القوطية في الرد عليه ممتزج بمدح الحاجب - أطال الله عمره وأبقى علينا ستره - وهو:

نبيل البنفسج فاحتوى التفضيلا
لما شأى نور الربيع بطيبه
فضل النوار فحاز دون جميعه
متشبهاً في سبقه بالحاجب ال
ملك علا غر الملوك المعتلي
كم طاولوه في الفخار ففاتهم
متشبهين بما يمثله لهم
كتشبه الخيري بالمزري به
وإذا اعتزى فإلى البنفسج يعتري
ما للكر نبي الخليفة بيتغي
أو ما درى أن البنفسج لم يزل
من أين للخيري اللئيم طلاقة ال
متستر طول النهار بعرفه
حتى إذا طرق الظلام سخا به
زهم المشم إذا تقادم قطفه
وإذا قرأت منافع النوار لل
والنفع غصاً إن تشأ أو يابساً
لا يستحيل نسيمه في الحالتي

وكذا البنفسج لن يزال نبيلاً
وحوى من الشرف الصريح أثيلاً
قصب السباق ولم يكن مفضولا
أعلى عماد الدين إسماعيلاً
ن أبأ وجداً في العلا وقبيلاً
عرضاً إلى المجد التليد وطولاً
لو أحسنوا التشبيه والتمثيلاً
ليحوز من تلك الخصال فتيلاً
وإليه ينسب كي يعز قلبيلاً
فضل الرئيس المعتلي تخبيلاً
فوق الأكف جلاله محمولا
سمح الكريم ولن يزال بخيلاً
كي لا يرى لنسيمه مسؤولاً
إذ لا يرى إلا القليل سؤولاً
شيئاً قليلاً أو أحس ذبولاً
حكماء أصبح بينها مجهولاً
هو للبنفسج كله محمولا
ن ولا إذا استنشفتة معمولا

يخلون منه مجنساً مفصولاً

وذخيرته الخلفاء والأملأك لا

وليرجع الخيري عنه ذليلاً

فليحظ بالقدح المعلى فاخراً

وللوزير أبي عامر بن مسلمة قطعة بديعة مطبوعة أشار فيها إلى تفضيل البهار على النرجس وهي:

بمقلة ليس تطرف

ونرجس هب يرنو

ن في رداء مفوف

مثل النجوم تساقط

بهارنا منه أصلف

يحكي البهار ولكن

لغيره ليس تعرف

له فضيلة سبق

نفوس واشرب لتظرف

فجع عليه فدتك الن

وللفقيه أبي الحسن بن علي قطعة سرية يفضل فيها الخيري الأصفر على النمام وهي:

تباريح مكلوم الفؤاد سقيم

أرى أصفر الخيري يبدي من الضنا

وقضب به تندى بماء نعيم

ويكذبه سحر بأعين نوره

ولا يبلغ الكافور طيب شميم

وعرف ذكي يقصر المسك دونه

وأنجمها حسناً بصفر نجوم

يساجل آفاق السماء بروضة

وحارسه قد بذه بنسيم

وذي هفوة قد ظن أن شقيقه

بصير بتجبر النظام عليه

فقلت: انتد في الظن واسمع لمنصف

ونوكرم في المجد مثل لئيم

أفي القدر مخدوم لديك وخادم

وليس خصوص الخير مثل عموم

وسيان طيباً ليله ونهاره

ولالحق في الفخر مثل صميم

وما تفل في يومه مثل عاطر

ولالحق نور لائح في أديم

فقال: بحق قلت وهي مقالتي

وللوزير أبي عامر بن مسلمة أبيات محكمة في تفضيله أنشدنيها موصولة بمدح ذي الوزارتين القاضي -

أدام الله علوه وكبت عدوه - وهي:

أرفع الخيري قدرا

أصفر الخيري عندي

وهو لا يحميك عطرا

فهو لا يمنع عرفاً

لص لكن فاق نشرا

مثل لون الذهب الخا

وإذا يحكي اليواقي	ت إذا ما كن صفرا
مثله استوجب مني	أبدأ شكراً وسكراً
مثلما استوجب قاضي ال	عدل من ذا الخلق شكرا
ملك غر أيادي	ه على الأسماع تترى
ملك ما زال يولي	ني تقريباً وبرا
قارض الله أيادي	ه مطيلاً منه عمرا

ولأبي جعفر بن الأبار أبيات جليلة المقدار أشار فيها إلى تفضيله وهي:

أصباه حب سميهِ	فغدا الضنا من زيهِ
وهوى الهوى بفؤاده	فاصفر غض جنبيهِ
مثن على المملوين لا	كشقيقه وسميهِ
حسب الزمان تفاؤلاً	بالخير من خيريه
فاحتث كؤوس مدامة	تلق الغليل بريهِ
صفراء قلدها المزرا	ج لشربها بحليهِ

قوله: على المملوين يعني الليل والنهار. لا كشقيقه وسميه يعني الخيري النام. وفي هذا البيت فضل الأصفر. ولصاحب الشرطة أبي بكر بن القوطية في تفضيله أبيات بديهة سرية وهي:

وأصفر نرجسي اللون نام	مبراً من صنوف النقص والذام
زها اعتلاء على المنام يجمعه	به اسمه فعل ذي لب وإلهام
فقال: لي الفضل إني في النهار وفي	ليلي أنم وفي صبحي وإظلامي
وأنت يا مدعي اسمي طول يومك لا	تدنى اطراحاً إلى خيشوم شمام
وإن لونك من لون النحاس ولو	ني في ملاحظته ضرب من السامي

قال أبو الوليد: لما كثر الكلام في تفضيل الخيري الأصفر، صنعت قطعة ربما كان فيها بعض الرد على من فضله، وبخس المنام أكثر حقه، ولم يرع حسن خلقه وخلقه وهي:

يا من يذم خلائق المنام	ويحطه عن خطة الإكرام
قدك اتئد عن لومة جهلاً به	فجماله زار على اللوام

هو أشهر الخيري حسناً فاحبه
متنزه عن أن يرى مستهتراً
مستظرف في خلقه مستظرف
لم يرض إلا المسك مسكاً جسمه
والمتمني أبداً إليه نضاره
اصفر من حسد له وكآبة
لو كانت الشمس المنيرة سرمداً
لم تلق بالإجلال والإعظام
وبه يبوح إليك في الإظلام
في الفضل أن يعزى إلى النمام
لما شآء بحسنه البسام
من بينه بتحية وسلام

قولي: إلا المسك مسكاً المسك: الجلد، والغرض تشبيه لونه بلون المسك

الفصل الثالث

القطع المفردة كل قطعة منها بنور على حدة

قال أبو الوليد: يجب أن نبدأ بأول الأنوار، وأبكر الأزهار وهو من النواوير الربيعية، نور البهار. ولكن ما كان من النواوير باقياً في كل وقت، وثاوياً مع كل فصل، هو أول على الحقيقة، وصدر في هذه الطريقة كالآس والياسمين، فأما الآس فقد فضل قديماً على ضروب الأنوار وصنوف الأزهار، وصيغت في ذلك حسان الأشعار، إذ شجره يقوم مقام النوار ثم يزيده نواره جمالاً ثانياً، ويضيف إليه كمالاتاً زائداً وأما الياسمين فإن نوره لا ينقطع أبداً كله ولا يذهب جميعه. فنبدأ بهما ثم نذكر النواوير على أزمتها.

الآس

قال أبو الوليد: من حسن ما قيل فيه ما أنشدنيه لنفسه الشيخ أبو عبد الله بن مسعود وهو:

الآس آس لأسى
في كل فصل زاهر
إذا سرى منه الشذا
أهدى لأرواح به
كأنه في جنة ال
لو نافر النور إلى
كل فؤاد مكتئب
وما سواه منقلب
في آخر الليل وهب
أرواح روح وطرب
خلد نما ثم اقتضب
عدل صحيح المعتقب

وصحفت نصيبته

جاء نبياً فغلب

قوله: أرواح روح الأرواح هنا جمع ريح، والروح: الراحة. والأرواح الأول: جمع روح وقوله: جاء نبياً يعني أن هذا اللفظ تصحيف آس مقلوباً. ومما فيه من حسن التشبيه قول أبي عمر الرمادي في قطعة تضمنت وصف غيره وهو:

خلوف من الريحان راقت كأنها

وإن حسنت في لحظنا لم شعث

ومما يقرب من هذا - وإن كانت فيه زيادة - بيت أبي الحسن بن علي أبي غالب:

فما شئت من آس تفتح نوره

كما أخلست هام لها شعر جتل

يقال: أخلص الرأس إذا بدا شيبه. ومن الفائق الفائق، والرائع الرائق في وصفه قطعة خاطبني بها الوزير أبو عامر ابن مسلمة وبعث معها مطيباً وهي:

يا واحد الأدباء والشعراء

وابن الكرام السادة النجباء

إني بعثت مطيباً نمقته

من روض داري دارك الغناء

من آسه لازلت تأسو عاطراً

وتبيد ما يعدو من الأعداء

يحكي بطيب عرفه وبحسنه

خلقاً خليفاً منك بالإطراء

هو كالسما إذا بدت مخضرة

لاحت عليها أنجم الجوزاء

فاقبله من صب بحبك وده

ألا تزال أخوا علاً وعلاء

قال أبو الوليد: فجاوبته عن هذه الألفاظ البديعة، والمعاني الرفيعة. بما يمكن أن يدخل في هذا الباب ويوافق بعض غرض هذا الكتاب وهو:

يا من حبوت بوده حوباء

وهي الفداء له من الأسواء

وصل المطيب معرباً عن طيب من

أهداه مكنثباً من الإهداء

أظميته من بعد ما أرويته

بمدامة فيها دواء الداء

ما كان أشهر طيبه لو لم يكن

متستراً بالقطعة الغراء

أربي عليه نظمك الحلو الحلى

فانحط بعد الرتبة العليا

إن كان نور الآس في ورقاته

نوراً بدا في ليلة ظلماء

فجمال خلقك حين ينظم عقده

كالبدر ينظم أنجم الجوزاء

ومن المستحسن المستغرب، والمستطاب المستعذب، ما أنشدنيه لنفسه فيه صاحب الشرطة أبو بكر بن القوطية وهو:

أما ترى الريحان أوراقه
تلتف تجعيداً ولا تنبسطُ
دقيقة اللمات في رؤوسها
كأنه أسود جعد قططُ
وقد غدا تنويره جوهرًا
ففي الموامي والربا يلتقطُ
حتى إذا ما مل من مكثه
في عوده المشرق فيه سقطُ
منكشفاً عن ثمر أسود
كأنه من نفض حبر نقطُ

قوله: لموامي جمع موماة وهي القفر، ويقال: بوابة فيها أيضاً. والربا جمع ربوة وهو ما ارتفع من الأرض. ومن المشرق جماله، المونق كماله، المعدوم مثاله ما أنشدنيه لنفسه أبو جعفر ابن الأبار وهو:

وأس كاسمه للهم أس
ترسل كالغدائر مرسلات
تتبه به حلى الزمن القشيبِ
مدحرجة لها عرف الحبيبِ
بها ققط ونم بكل طيبِ
فغادر فيه أزرار الجيوبِ
وفاغده نوره فبدت لآل
وفاغده نوره فبدت لآل
كأن الصبح شق به جيوباً
فعود سود حبات القلوبِ
ونافسه الورى شغفاً وحباً

هذا الوصف مستوعب لجميع أحوال الآس لأن نوره أولاً مبيض ثم يسود. وله أيضاً فيه وصف يوازي هذا ويضاهيه، وهو:

لا أيأس الآس هامى السكب مدرارُ
تكداد تثمر نفس الصب من جدل
فهو الوفي وكل النور غدارُ
كأنما ألبسته المزن خضر حلى
إذا بدا ثمر منه ونوارُ
لها من المسك والكافور أزرارُ

هذا ما وقع إلي في الآس، وحين أكملته أبدأ بما ورد علي في الياسمين.

الياسمين

قال أبو الوليد: أبدع ما قيل فيه، وأبزع ما شبه به، وأرفع ما أمل علي لنفسه فيه ذو الوزارتين القاضي - حرس الله حوباءه وصان ذكاهه - وهو:

وياسمين حسن المنظر
يفوق في المرأى وفي المخبرِ

كأنه من فوق أغصانه

دراهم في مطرف أخضر

قال أبو الوليد: هذا التشبيه معدوم التشبيه. ومما يوازيه دقة، ويضاهيه رقة قوله أمله علي - أبقاه الله - وهو:

وياسمين حسن المجتلى

كأنه في قضبه الضافية

زمرد رصع ما بينه

مداهن من فضة صافية

وأمل - أعزه الله، وأحسن ذكره - علي فيه له قطعة قوية الوصف، سرية الرصف وهي:

سبحان من أنشأ ذا الياسمين

خلقاً بديعاً للنهي والعيون

كأنما الأغصان من تحته

والورق المخضوضر المستبين

زمرد نضد فوق الربا

وهو على أعلاه در مصون

آيات صدق شاهدات بأن

ليس لمن أبدعها من قرين

وهذه التشبيهات كلها، والصفات بأسرها هي فيه وهو في شجره، ولو لم يكن كذلك لم تشبه خضرته وأكثر ما وصف في هذه الحال، ولم يقع في نواره مفرداً إلا قول أبي عمر الرمادي وهو من الصفات المطبوعة والتشبيهات البديعة:

انظر إلى روض ياسمين

لم يرد الورد وهو وارد

كأنه عدة ولوناً

أكف حور بلا سواعذ

قال أبو عمر أحمد بن فرج يصف بقاءه ويقرض وفاءه:

ليس كالياسمين نور الرياض

هو باق والنور أجمع ماض

فاقض بالفضل للوفاء على الغد

ر تكن إن حكمت أعدل قاض

ومن السحر الحلال، المستوفي نهاية الكمال، قول ذي الوزارتين أبي عمرو عباد - أعزه الله - وقد دخل بستاناً لي اكتسبته من نوافل كرمه وسوابع نعمه، فرأى ياسميناً فيه فقال بديهة:

كأنما ياسميننا الغض

كواكب في السماء تبيض

والطرق الحمر في جوانبه

كخد عذراء ناله عض

شبه النور بالكواكب، وخضرة ورقه بخضرة السماء، ولم أسمع لأحد قبله وصف حمرة وهي تكثر عند قلة الياسمين في زمن الشتاء وتقل عند كثرته.

وللوزير أبي عامر بن مسلمة فيه وصف رائع، وتشبيه رائع، وصله بمدح ذي الوزارتين المذكور - أعزه
الله وأسبغ عليه نعمه - وهو:

وذكى العرف لاقا	نا على كرسي ملكة
أرضه الخضراء بحر	نوره فيه كفلكة
ياسمين قد غدت أن	وارنا طوعاً لملكة
طوع حر الشعر عبا	داً وقد أومى لسلكة
ماجد ينقاد منه ال	أدب الغض لملكة
مالكه يوقن منه	ومناويه بهلكة

ومن المعاني الدقيقة في الألفاظ الأنيقة ما أنشدنيه لنفسه فيه الوزير الكاتب أبو الأصبغ بن عبد العزيز
وهو:

وياسمين بعرشه أشرف	عرفه العرف قبل أن يعرف
تكامل الطيب والجمال به	فهو من الفضل فوق أن يوصف
كأنما خلقه البديع إذا	تراحم النور قبل أن يقطف
سرير ملك عليه مشملة	خضراء والقطن فوقها يندف

ومن التشبيه السري والتمثيل السني، قول الفقيه أبي الحسن بن علي وشبه مجلس الأئمة بالحرب وهو:

وشرب أدلجوا للأئمة لما	أصبغ على يد الشجر الذمار
سرت بهم إلى ثغر التصابي	ركاب لا يخاف لها عثار
فخلوا آمنين على الأمانى	فكان لهم من الشجر انتصار
عريش الياسمين لهم سماء	وخضرة أرضه لهم قرار
به حجف من النوار بيض	مفضضة وأرماع صغار
فوجه نهارهم بالظل ليل	وليلهم بأنجمه نهار
فإن أوحشت من شمس تبدت	عليك بشمس كفرها العقار
وما شهد الكرام وغى كحرب	جراح المقصدين بها جبار

قوله: جبار أي لا دية فيها ولا مطالبة بها وقوله: به حجف، الحجف صغار الترسة. وأرماع صغار: يعني النواوير المتعلقة منه أول ما تبدو.

ومن الصفات السرية وصف صاحب الشرطة أبي بكر بن القرطية:

وأبيض ناصع صافي الأديم
تطلع فوق مخضر بهيم
نزيه النفس همته المعالي
ذكي العرف مسكي النسيم
فلست تراه إلا عند ملك
وإلا عند خاصتي كريم
شأى النوار فارتفع اعتراضاً
عليه كهيئة الملك العظيم
كأن ثماره المجني منها
سماء قد تحلت بالنجوم

وأنشدني لنفسه فيه أبو علي إدريس بن اليمان قطعة حسنة التشبيه وهي:

أمير النور يأمرني بشرب
ولست أطيق عصيان الأمير
فخذ كأس السرور فاسقنيها
على ود الأمير على السرير
نجوم من لجين تجلتليها
سماء زبرجد خضل نضير
تزيد على الأقاحي في ابتسام
كما زاد الكبير على الصغير
وينخفض الشذا المسكي عنها
كما انخفض الصغير على الكبير

قال أبو الوليد: هذا ما وقع إلي في الياسمين البستاني وعثرت على قطع في الياسمين البري وهو الظيان، وليس يبقى مدة العام، إنما هو ربيعي، ولكن قدمته على الربيعية لتسميه باسم المتقدم، وانتسابه إليه، واشتباهه به، فوصلت ذكره بذكره. وما قيل فيه مع أن وصفه لم يكثر، وذكره لم يتكرر فليس يحتمل إفراداً وإنما يجب أن يكون تبعاً لهذا، وخلق شجره ونوره كخلق البستاني إلا أن نوره أصغر. فمن أطبع ما قيل فيه وأبدعه وأعلى ما شبه به وأرفعه أبيات لذي الوزارتين القاضي الجليل المنقطع المثل أملهها علي وهي:

ترى ناصر الظيان فوق غصونه
إذا هو من ماء السحائب يغثذي
وحفت به أوراقه في رياضه
وقد قد بعض مثل بعض وقد حذي
كصفر من الياقوت يلمعن بالضحى
منضدة من فوق قضب الزمرد
وله - أعلى الله ذكره وأيد أمره - في صفته خاصة تشبيهه بديع، وتمثيل رفيع أمله علي، وهو:
كأن لون الظيان حين بدا
نواره أصفراً على ورقة

لون محب جفاه ذو ملل
فأصفر من سقمه ومن أرقه
وأشدي فيه لنفسه الوزير الكاتب أبو الأصبع بن عبد العزيز أحياناً معجبة تضمنت أوصافاً مغربة، وهي:

فضائل الظيان معروفة
تروق في المنظر والخبر
فاق النواوير معاً أنه
منزه يأوي إلى البر

وأنه يأنف أن يقتنى
على سبيل الملك والقسر
فآثر الصحراء مستأنساً
في ليله بالأنجم الزهر
متى تزره تلق من عرفه
ما شئت من طيب ومن عطر
أبراده خضر ولكنها
مخصوصة باللبن الصفر

وللفقيه أبي الحسن بن علي فيه وصف رائع وتشبيه بارع في قطعة موصولة بمدح ذي الوزارتين القاضي وهي:

إذا نور الظيان في خضر قضبه
وراح بثوب من دجا الري قد حذي
أفادك من صفر اليواقيت أنجماً
له طالعات في سماء زمرد
كأن سناه في الرياض وحسنه
بحسن ابن عباد ورياه محتذي

قال أبو الوليد: وحين أوردت ما وقع إلي في الآس والياسمين من بديع الشعر الموزون نذكر الأنوار على أزمته ونبدأ بالأول منها وهو نور البهار.

البهار

وقال أبو الوليد: ويسمى البهار الترجس، وأكثر أشعار المشرقين اسمه فيها الترجس وأما الأندلسيون فاستعملوا الاسمين، وذكروا اللغتين. فمن أبدع تشبيه وقع إلي فيه قول أحمد بن هشام بن عبد العزيز بن سعيد الخير ابن الإمام الحكم، وقد بعث به إلى الإمام عبد الرحمن الناصر لدين الله وهو:

يا مليكاً من الملوك مصفى
والذي جل أن يحدد وصفا
عبدك الشاكر المؤمل أهدى
نرجساً كالعبير نشرأ وعرفا
كلما فاح نشره قلت: إلف
في دجا الليل عاطر زار إلفا

وإذا ما لحظته قلت: أَلحَا ظ خليع قد مال سكرًا فأغفى

منه مثل الإبريز في صفرة اللو ن ومنه مثل الجمان المصفى

فكأنني بما أقلب منه صيرفي أضحى يحاول صرفا

وقول إسماعيل بن بدر وهو حلال من السحر:

أهدي إليك من النوار أحسنه قد ضل في وصفه من قلبي الناسُ

كأنها نقر من فضة وضعت فيها من الذهب الإبريز أكواسُ

على الزمرد قامت عند منبتها في كل نواره مفتوحة كاسُ

وقال الحاجب أبو الحسن جعفر بن عثمان المصحفي يصفه بألفاظ رطبة، ومعان عذبة، وأشار في أول بيت إلى ممدوح لم يسمه، وهي:

بنفسي وأهلي طالع خلت أنه بأخلاق معشوق العلا يتخلقُ

حكى الفضة البيضاء والتبر منظرًا ولكنه بالنفس ألقى وأعلقُ

فصيح إذا استتطقته عن زمانه وما خلت أن النور من قبل ينطقُ

بيئك أنفاس الحبيب وإنها لأذكى من المسك الذكي وأعبقُ

أتانا على عهد الشتاء مبشرًا بعهد يروق الناظرين ويونقُ

وقال أبو عمر احمد بن فرج - وقيل: أخوه عبد الله - يصفه:

ونرجس تطرف أجفانه كمقلة قد دب فيها الوسنُ

كأنه من صفرة عاشق يلبس للبين ثياب الحزنُ

قال أبو الوليد: جرى في ثياب الحزن على مذهب أهل الأندلس، إذ ثياب حزنهم بيض وهو تشبيهه بديع، وتمثيل رفيع، ومعنى مطبوع.

ومن التشبيهات العقم التي تدل على يقظة الفهم، قول ابن القرشية عبد العزيز ابن المنذر بن عبد الرحمن الناصر لدين الله - رضي الله عنهم - وهو:

كأن الثرى ستر تمد خلاله بأكواس راح راحهن الكواعبُ

يسترن من فرط الحياء معاصمًا بأكمامهن الخضر عن يراقبُ

جعل قضبه الخضر معاصم مستورة بأكام خضر، وجعل أكفها مبيضة وكؤوسها مصفرة. وأنشدني
الفقيه أبو الحسن بن علي الأشجعي النحوي يصف بهاراً أخرج به إليه أحد بني بخت وسأله وصفه، فقال
على البديهة:

ما للبهار نظير في النواوير
أما ترى الصب والمعشوق قد جمعا
إذ صار أول مخصوص بتكبير
في لونه بين تبييض وتصفير
فجعل النور من بين النواوير
كأنما رق للعشاق منظره
عن السرور وإتمام التبشير
أحبب به فلقد أنبا بطلعته

وكتب الوزير أبو مروان بن الجزيري إلى المنصور أبي عامر بن أبي عامر وهو بأرملاط

عن بهار العامرية في كانون الأول الكائن في سنة ثلاث وثمانين وثلاث مئة:

بسم الله الرحمن الرحيم

أطال الله بقاء المنصور مولاي، وأدام عزه، وهنأه سروره، وسوغه نعمه عنده، إني - أيد الله المنصور
مولاي - لما استقلت زهرتها مائلة قضبي، وتنبهت من سنتها نائمة جفوني، ونمت بعطرها ساطعة
روائحي، وافترشت ديباج حديقة بكر وسميها، وتتابع وليها فالتقى ثرياها، وأخذت الأرض زخرفها
وازينت وطاب صعيدها حتى كأن تراها فتيت المسك، أو سحيق الكافور، عن لي زهو بحسني وارتياح
لحالي، وإعجاب بمكاني، وشاركت ذلك دواعي هزة الشوق إليك، وشواجي لوعة البعد عنك حين
فارقت محلي، وآثرت بالزيارة غيري فحركن مني ساكناً، وبعثن لي على مناجاة الشعر خاطراً. فأجابني
منه ما ضمنته غرائب وصفي وأهديته إلى مولاي مع محاسن شخصي الذي هو غرس همته وابن نعمته لعل
فعلي أن يوافق منه قبولاً، ويقسم لي من حسن تذكركه نصيباً بوسع تفضله وسابغ تطوله، وكريم تحاوره.
والشعر:

حذق الحسان تقر لي وتغار
تضل في صفة النهى وتحار
طلعت على قضبي عيون كئامي
مثل العيون تحفها الأشفار
وأخص شيء بي إذا شبهتني
درر تنطبق سلكها دينار

أهدت له قضب الزمرد ساقه	وحباه أنفس عطره العطارُ
أنا نرجس حقاً بهرت عقولهم	ببديع تركيبتي فقيل: بهارُ
إني لمن زمن الربيع تربني	قطع الرياض وتلقح الأمطارُ
فأكون عطراً للأنوف ومنظراً	بهجاً تهافت نحوه الأبصارُ
وتحية بين الندام تحت لي	نخب الكؤوس وتتطبق الأوتارُ
وأقل جود العامري محمد	ألف حكمت حدقي وتلك نضارُ
عشر تعد من المئين لأنمل	عشر يصرفها وهن بحارُ

قوله: ألف حكمت إنما أنث الألف لصرفها إلى الدراهم، وأما الألف فمذكر. ولا يحتاج إلى ذكر أكثر من هذا المدح، كما لا يحتاج إلى إطراء النظم والنثر بأكثر من أنهما حلال في السحر. ومن الحسن السري قول أبي عمر القسطلي يصفه في قطعة موصولة بمدح المظفر بن أبي عامر وهي:

دعيت فأصغ لداعي الطرب	وطاب لك الدهر فاشرب وطبُ
وهذا بشير الربيع الجديد	يبشرنا أنه قد قربُ
بهار يروق بمسك ذكي	وصنع بديع وخلق عجبُ
غصون الزمرد قد أورقت	لنا فضة نورت بالذهبُ
إذا جمعت في حبال الحرير	وقامت أمامك مثل اللعبُ
فمن حقها أن ترى الشاربين	وقد نفقت سوقهم بالنخبُ
وأن يسألوا الله طوال البقاء	لعبد المليك مليك العربُ
فلولا مجالسه لم ترق	ولولا شمائله لم تطبُ

وأنشدني الفقيه أبو الحسن بن علي للفقيه أبي عثمان بن البر قريه:

ألا فاسقني روح النفوس وأنسها	ولين بماء المزن في المزج مسها
وشعشع لنا شمس الشمول ببدرها	وأجر علينا بالمسرة كأسها
فأنت ترى أقمار نرجس روضنا	خلاف السماويات جاوزن شمسها
محاسن لو دانت أبا العي باقلاً	إذا بذ سبحان البرايا وقسها

وأنشدني لنفسه فيه الوزير أبو عامر بن مسلمة قطعة غريبة التشبيهات عجبية الصفات، وهي:

قد جاءنا رائد الربيع
هو البهار الذي تعلق
بمنظر رائق بديع
كأنه مقلة تشكى
وجل في حسنه الرفيع
أكف كافورة قد أومت
إلى الحيا قلة الهجوع
أو شعلة النار وسط ماء
بكأس تبر إلى الربيع
جسد من ثوبه النصوع

وله فيه قطعة توازي هذه جمالاً، وتضاهيها كمالاً كتب بها إلى أبي - وقاه الله بي - وبعث معها بهاراً مبكراً:

أيا ماجداً لم يزل جوده
ويا من أحل بأمواله
يلوح كما لاح ضوء النهار
بعثت إليك بنور البهار
سماحاً أخل بصوب القطار
هو الدر نظم من بينه
حكى فضة حول محض النضار
أو الماء صير من فوقه
يواقيت فاقعة الإصفرار
نهار ولكنه باهر
إذا ما تأملته ضوء نار
فعموض من ذلك باسم البهار
كما بهرت منك سيما العلا
بقيت ووقيت صرف الردى
فإنك في كل أمر مداري

ومما يستحسن فيه وتستغرب معانيه قول صاحب الشرطة أبي بكر بن القوطية وهو:

زمرد أورقت أغصانه درراً
فراح كالراحة البيضاء منطرا

يقل ياقوتة صفراء فاقعة
هو النهار ولكن رد نقطته
كأنها التبر من فوق اللجين جرى
ثمت دعاه بهاراً كي يهجنه
مكيدة تحته النوار إذ وغرا
كمقلة دب في أجفانها وسن
وقد حوى قصبات السبق إذ بهرا
فرنقت غير أن لم تدر طعم كرى

وأهدى صاحب الشرطة أبو بكر المذكور مطيب بهار إلى الوزير أبي عامر بن مسلمة وكتب معه أبياتاً رائقة السمات، فائقة الصفات وهي:

قل لريحانة العلا والمكارم
 قد بعثنا إليك يا خير ناش
 والكريم النجار وابن الأكارم
 لم يسس طبع هذه جعفر قط
 بالدنانير فوق محض الدراهم
 ببهار يحكي جمالك حسناً
 ط ولا ضرب تلك راحة قاسم
 وحكى عرفك الذكي لناسم
 يتشكى الظما وفي يدك الري
 وحكى عرفك الذكي لناسم
 ي فإن لم تروه كنت ظالم
 دمت للمهرجان والعيد والني
 روز إلفاً من الحوادث سالم

فجأوبه الوزير أبو عامر بن مسلمة بديهة بأبيات تشاكلها براعة وتشابهها بزاعة وهي:

في النرجس الغض شبه لا خفاء به
 في النيرين يرى في طالع الزهر
 فصفرة الشمس قد ردت صفرتها
 وقد مبيضه من صفحة القمر
 كأن ياقوتة صفراء قد طبعت
 في غصنه حوله ست من الدرر
 حسن يدل على إتقان صانعه
 سبحانه مبدع الأخلاق والصور

وله أيضاً فيه قطعة موصولة بمدح ذي الوزارتين القاضي - أطال الله عمره كما أطاب ذكره - وهي:

أرى في البهار النرجسي تلالواً
 عيون الورى مشغوفة بالتماحه
 كأن الرياض الخضر صغن لباسه
 بشكليين من ماء الغمام وراحه
 أو الدهر رداه سروراً بشخصه
 رداعين من إسفاره وصباحه
 فحلته في لونها ذهبية
 وفضية أثناء عقد وشاحه
 جمال به حل الربيع قراره
 ومنه كسا لا شك نور أقاحه
 كما قد تحلى الدهر من بعد عطلة
 بجود ابن عباد وفضل سماحه
 به نيلت الآمال في كل بغية
 وبوشر برد الأمن تحت جناحه

ومن البديع المختار فيه ما أنشدني لنفسه أبو جعفر بن الأبار وهو:

أما ترى الروض راضاه الحيا فبدا
 للنرجس الغض فيه لحظ مبهوت
 مثل العيون رنت أشفارها درر
 لكن أناسيها صفر اليواقيت
 الأناسي: جمع إنسان وهو ناظر العين وحدقتها.

البنفسج

البديع في وصف الربيع-ابو الوليد الإشبيلي

وأنشدني فيه لنفسه أبو علي إدريس بن اليمان بيتين سابقين. وقال أبو قاسم بن هانئ الأندلسي:

بنفسج جمعت أنواره فحكّت
كحلاً تشرب دمعاً يوم تشتيتِ
أو لازوردية أربت بزرققتها
وسط الرياض على زرق اليواقيتِ
كأن قضبانه والريح تحملها
أوائل النار في أطراف كبريتِ

وللوزير الكاتب أبي الأصبع بن عبد العزيز فيه قطعة أغيت في الجمال فأعيت أهل الكمال، موصولة بمدح
الحاجب - حجه الله عن النوائب - وهي:

وبنفسج أربي على النوار
وأفادنا عطراً بلا عطارِ
فكأن أعلاه في فيروزج
وبساطة في خضرة الأشجارِ
وأفاك في وقت الزيارة قائماً
وقد انحنى للوحي بالأسرارِ
هو مسكة خلقت لها أوراقها
في لونها من صنعة الجبارِ
أو رقعة زرقاء من كبد السما
في يوم صحو فتنة النظارِ
أو لمة الحسناء تحسب وسطها
للزعران مواضع الأثارِ
أو لجة كحلاء هزتها الصبا
فتكسرت ليناً على مقدارِ
أو درع حاجبنا أنته صقلية
وقد انبرى للفتك بالكفارِ
ملك قلوب الأسد بين ضلوعه
وبوجهه قمر من الأقمارِ
فإذا سطا فالصبح داج مظلم
وإذا عفا فالليل في إسفارِ

ومن المعاني الجزلة في الكلمات العذبة ما أنشدني لنفسه فيه أبو عامر بن مسلمة وكتب به إلى ذي
الوزارتين أبي أيوب بن عباد - أبقاه الله - في زمن البنفسج وهو:

يا من تحلى به الفخ
ر والسناء يتوجُ
ومن بجود يديه
باب الغنى غير مرتجُ
ومن بطيب ثناه
نار العلا تتأججُ
إذا انتشيت فعرج
على رياض البنفسجُ
تجد به روض حسن
في ثوب أرض مدبجُ
فثم فاعكف وباكر
مدامة تتوهجُ

ترى زمرد أرض

منه اليواقيت تنتج

كأنه لجة البح

ر غاص فيها ملجج

فأخرج الزرق لكن

بغيرها لم يعرج

حكى حسام أبي أي

وب المتضرج

أعني ابن عباد الما

جد الكريم المتوج

وأنشدني لنفسه فيه الفقيه أبو الحسن بن علي أحسن ابتداء وأعرب اختراع موصولاً بمدح ذي الوزارتين
أبي عمرو بن عباد - أدام الله عزته ووصل حرمة - وهو:

ألا حبذا المحبوب نور البنفسج

وأحبب بمرآة البديع وأبهج

حياة وروح لعليل نسيمه

ومنظره أنس المتيم والشجي

ونواره كالعقد في صدر غيد

لمختلس سهو الرقيب ومدلج

وحمر اليواقيت الوضاء وصفرها

تألفنا في لونه المضرج

فلو نظمته الحاليات لأشرفت

جواهره في كل قرط ومدلج

محاسنه من حسن عباد الرضا

ولالأؤه من وجهه المبتلج

وله أيضاً بيتان استوليا على أمد الإحسان وهما:

إذا ما نواوير البنفسج أطلعت

جواهرها في الروض نثراً بلا سلك

رأيت سماء وشحت درع خضرة

عليها نجوم طالعات من المسك

ولأبي جعفر بن الأبار فيه قطعة جيدة الحبك حسنة السبك موصولة بمدح الحاجب - لا أعد منا الله جاهه
كما أعد منا أشباهه - وهي:

صاد الزمان ورو غلة صاد

بمدامة لم تعد مولد عاد

أو ما ترى ثغر الثرى مبتسماً

لك عن مراد مونق ومراد

وبنفسج الروض الأغر كأنه

في حسنه لعس عليه باد

لا بل كأجنحة الفراش تألفت

نسفاً وقد خضبت من الفرصاد

روض يظل اللحظ يعبد حسنه

كعبادة العليا بني عباد

يزهي المحافل والجحافل منهم

أسنى عميد للورى وعماد

الحاجب المحجوب طاهر عرضه

بندی جواد في الرهان جواد

صلتان ما زالت حداد سيوفه

وقناه تكسو الشرك ثوب حداد

قوله: صاد أول القطعة أمر من صاديته إذا درأته. وصاد الثاني اسم الفعل من الصدى وهو: العطش والفرصاد: التوت وقوله: في الرهان جواد. معناه سابق وجواد قبله. بمعنى كريم وحداد سيوفه معناه: قاطعة ماضية، وحداد الثاني: لبسة الحزن وهيئته. ولأبي علي إدريس بن اليمان فيه قطعة رفيعة الوصف، بديعة الرصف وهي:

فتق الثرى من نوره بكواكب

دعج النواظر والخدود عجائب

فأدر علي الكأس بيضختية

في دولة النجم الرفيع الثاقب

طبع الربيع على بشاشته به

طبع الشبيبة فوق ثدي الكاعب

شبه لونه بلون أطراف الثدي وهو من الاختراع السري. وبيضختية: منسوبة إلى بيضخت قرية بعينها. وأنشدني لنفسه أيضاً فيه بيتين أنيقي التشبيه وهما:

وأريضة حاك الغمام برودها

وسقى بريق الغانيات برودها

ضحك البنفسج فوقها فكأنما

نثرت به خضر الحمام عقودها

شبهه بلون أطواق القماري، وهي موضع العقود ممن يستعملها، وهذا التمثيل مفضل له مستحسن منه. قال أبو الوليد: هذا ما عثرت عليه في البنفسج، وحين أوردته أبدأ بالخيرى النمام إذ يقرب من حسنه ويشاركه في لونه.

الخيرى النمام

أطبع ما جاء فيه، وأبزغ ما شبه به قول أبي مروان المرادي وهو:

ينم مع الإظلام طيب نسيمه

ويخفى لدى الإصباح كالمستتر

كعاطرة ليلاً لوعدها محبها

وكاتمة صباحاً نسيم التعطر

هذا المعنى ابتذله الشعراء بعده، وهو اختراع حسن له. ولأبي عمر يوسف بن هارون الرمادي فيه تشبيه حسن من قصيدة بديهي وهو:

انظر غرائب للخيري ظاهرة

عند الظلام وعند الصبح تستتر

كأنه سارق طبيباً تفرق في الظ

ظلماء فهو بنم الريح مشتهر

وقال أبو عمر أحمد بن دراج القسطلبي يصفه في قطعة سرية موصولة بمدح المظفر بن أبي عامر - رحمه الله - وهي:

غدا غير مسعدنا ثم راحا
وخير فاختار شرب الغبوق
فإن أنس الصبح نام وشح
كما خير الله عبد المليك
يساعدنا طرباً وارتياحا
ولج فليس يرى الاضطباحا
وإن أنس الليل نم وفاحا
فاختار في راحتيه السماحا
وفي صهوات الخيول الرجال
ومن أدوات الرجال السلاحا
فعم القريب ندى والبعيد
وروى السيوف دماً والرماحا

ولأبي القاسم بن شبراق فيه وصف بديع وتشبيه مطبوع في قطعة موصولة بمدح المنصور لن أبي عامر - رحمه الله - وهي:

وبنفسجي اللون يكتم طيبه
فكأنه ذو مذهب ألفى الدجا
أو مستسر عن غريم فاقه
والصبح من غرمانه ولأجل ذا
قد كان يأخذه الصباح بغفلة
ككتائب الرعب التي تتقدم ال
فتفر قبل حلوله عند العدا
عند الشروق وفي الظلام ينم به
ستراً وأمسك مصباحاً عن مذهبه
غربت لجاجاً نفسه بتطلبه
لك يستسر تلوداً عن مطلبه
لو لم ينم عليه مطلع كوكبه
منصور وهو بائرها في موكبه
علماً بأن النصر أمر خص به

ومن الباهر جماله، الظاهر كماله، قطعة لصاحب الشرطة أبي بكر بن القوطية موصولة بمدح أبي - أبقى الله علي ستره ورزقني به - وهي:

ومضرج الأثواب مسكي النفس
شرك البنفسج في الأديم فلونه
يسري إذا طرق الظلام نسيمه
متكراً حتى المساء وإنما
فكأنما اشتقت حلاه من الغلس
من لونه فكأنه منه اختلس
ويظل يكمن بالنهار كذي دلس
سلطانه بالليل فهو من الحرس
ري والتلبس والتوحش والأنس
جنس يخالف كل جنس في التعر

فتراه طول نهاره متجرداً
وتراه طول نهاره متوحشاً
أنس المعالي بابن عامر الذي
أحى الرياسة بالسياسة فهو مف
وعلا فم يرث العلا والمجد عن
نور توقد فاستبان بلمحه
من عرفه ومع الدياجي ملتبس
فإذا دنا وقت الظلام له أنس
عمرت بدولته منازلها الدرْس
صح لكنها... بعد الخرْس
جد له نكس ولا جد تعس
ما كان أشكل قبل ذلك والتبس

ولبعض الأندلسيين فيه مغزى دقيق ومعنى رقيق، وقيل: إنه لعبادة بن ماء السماء وهو:

وكان الخيري في كتفه الطي
يظهر الزهد بالنهار ويمسي
ب فقيه مغزى بطول رياء
فاتكاً ليله مع الظرفاء

وقال الوزير أبو عامر بن مسلمة يصفه بأبدع وأغرب وهو:

وروضة محفوفة
خير بها بخلقه
يكتم أسرار الهوى
مغتبِق ليس يرى
بكل حسن مقترخ
عن كل نور منتزخ
فإن أتى الليل يبيح
في دينه أن يصطبِح

ومن التشبيه العلي قول الفقيه أبي الحسن بن علي وهو:

ما أكرم الخيري في فعله
كأنما خاف عليه العدا
يسهر إذ نور الربا ناعس
فهو له في ليله حارس

قال أبو علي إدريس بن اليمان يصفه بوصف متقدم الإحسان وهو:

مراشف الخيري حو لعس
أو نفست للمسك فيه نفس
وماله تحت النهار حس
كأنما الضوء عليه حبس
كأنه قد قبلته الشمس
الطيب في الليل عليه حبس

قوله: قبلته الشمس: يعني أن لونه كلون من أثرت فيه الشمس، وإلى هذا أشار وإياه أراد. وله أيضاً فيه تشبيه عجيب أنشدنيه وهو:

أهلاً بسار طيب لا سارب
أضحى هواه مضرباً بضرائب

يا ناجم الخيري جادك كل ذي
ثغر لجيب الدجن فوقك جائب
أعطيت أنفاس الحبيب معطراً
وخلقت من خيلان ثوب الكاتب

ومما كثر شغف أهل الميز به، واستحسان ذوي الفهم له قول أبي جعفر الأبار وهو:

لا تعذلوا الخيري في كتفه ال
الصبح شبه الشيب في لونه
طيب استتاراً فهو عين الصواب
فعافه والليل شبه الشباب

وأشدي لنفسه فيه أبو بكر بن نصر أبياتاً مطبوعة تضمنت أوصافاً بديعة وهي:

أحب من الإخوان ندباً مبادراً
نقي الحلى مما يندس طاهراً
يلم بليل للدمام منادماً
وينفض عني حين يصبح سائراً
وريحاننا الخيري محضاً فإنني
تخيرته بين النواوير ناضراً
لما أنه يضحى مع العرف عاطلاً
نهاراً ويمسي مدة الليل عاطراً
كأن له لب الأريب فما يرى
مشاهدة اللذات إلا مساهراً

قال أبو الوليد: وبعث إلي صاحب الشرطة أبو الوليد بن العثماني مطيب خيري مبكر، وكتب معه قطعة نثر مقتطعة من السحر، وهي بعد صدرها:

بعثت بخبري جاز حد التبكير بأنسه، فحاز قصب السبق في أبناء جنسه، منظره أربي على المسك بنضرته، ومخبره قصر عن شيمك على بسطته، فأقبله بحق المجد عليك، ووسائل الحمد إليك، بهجاً منظره، أرجأ مخبره، إذا دنا الظلام ونام الأنام إلا من استدعى عرفه، واستجدى عرفه.

فجاوبته والجواب بعد صدره: فلما تعاهدت خيريك عهداً شيمك، ودامت عليه ديم كرمك، بكر متنعماً منها متنفساً عنها، ولا ند له إلا الند ولا مسك له إلا المسك، وقد قبضته مشغولاً به مستلذاً بقربه، متعجباً من حسن اختياره لاستتاره باستهتاره تحت جناح الظلام ليسلم من الجناح والملام. وقد صنعت فيه أبياتاً بديهة متأخرة، فأغض على ما فيها محسناً إلى مهديها. وهي:

نهار خيريك في ليله
كذلك الليل نهار الأديب
ينم فيه وينام الضحى
تصاوناً عن كل أمر معيب
كأنما الليل حبيب له
فهو إذا حل اكتسى كل طيب
كأنما الصبح رقيب له
فيرعوي عند طلوع الرقيب

الند: المثل. والند: الطيب. والمسك: الجلد. قال أبو الوليد أكثر ما وصف من الخيري هذا النمام، وقلما ما وصف الأصفر وأنا ذاكر ما وقع إلي فيه:

الخيري الأصفر

من ذلك قول أبي عمر القسطلي:

أعاره النرجس من لونه
وناسب النمام لما انتهى
وما يجري واحداً منهما
تفضلاً وازداد من طيبه
إلى اسمه الأدنى وتركيبه
إلا كبا في حين تقريبه

وأحسن من هذا قول الفقيه أبي الحسن بن علي وهو:

كأنما الخيري مستهتر
صفرتة تنطق عن حاله
أعاره المزن رداء الندى
ما أوجه اللذات محجوبة
بالحب قد أنحله العشق
ورب حال دونها النطق
وصفرة المنتشح البرق
إذا تبدى وجهه الطلق

وحين أحضرنا ما في الخيري الأزهر، بدأ بالنرجس الأصفر.

النرجس الأصفر

قال الوزير أبو مروان عبد الملك بن جهور - رحمه الله - يصفه فأبدع وأعجب وأحسن وأغرب أنشدنيه له حفيده عبد الله، وهو:

واصفر حتى كأن الإلف يهجره
واخضر أسفله من تحت أصفره
يا نرجساً ظل قدامي تتم له
زمرد مائل من فوقه ذهب
وطاب حتى كأن المسك ينثره
فراق منظره الباهي ومخبره
ريح تذكرني شوقي فأذكره
معين نابه منه ومحجره
هيجت لي شجناً قد كان فارقتي
ذكرتني بالذي ما زلت أؤثره

وكتب الوزير الكاتب أبو مروان بن الجزيري إلى المنصور أبي عامر - رحمهما الله - عن نرجس العامرية في أول يوم من كانون الآخر سنة ثلاث وثمانين وثلاث مئة فأبدع واخترع وهو:

حيثك يا قمر العلا والمجلس
أزكى تحيتها عيون النرجس

زهرًا تريك بشكلها وبلونها
طلعت مطالعها على مخضرة
فتزينت حسناً أتم تزين
وملكن أفئدة الندامى كلما
من سوقها كسيت برود السندس
وتنفست طيباً أذ تنفس
دارت بمجلسهم مدار الأكرس
ملك الهمام العامري محمد
وفعالها المشكور أكرم ملبس
لبس الزمان وأهله من عهده
بين الأنام على علاه واحبس
فإذا ذهبت إلى الثناء فقفه من

ولأبي عمر القسطلبي فيه قطعة بديعة تضمنت أوصافاً رفيعة، موصولة بمدح المظفر بن أبي عامر وهي:

شكلان من راح وروضة نرجس
متباهيين تلونا بتلون
يتنازعان الشبه وسط المجلس
متباريين تنفساً بتنفس
وكأنه من طيب خلقك يكتسي
فكأنها من حد سيفك تلتظي
حتى غدا وسط النجوم الخنس
يا من علا من رتبة في رتبة
أدب الملوك وأسوة للمؤنسي
وابن الذين هداهم ونهاهم

ومن أنفس ما ملح به في النرجس قطعة للوزير الكاتب أبي الأصبع بن عبد العزيز وكان يلبس ثوباً رفيع القدر، نرجسي اللون، وهي:

رأيت عباداً له ملبس
فقلت سبحان العزيز الذي
في حشوه الجود معاً والكرم
أودع ذا الثوب رفيع الهمم
أبيض مثل البدر بادي الشمم
أروع في سؤده سابقاً
وطيبها نرجسه إذ تشم
كأنما صفرة أثوابه

قد كنت يا نرجس من قبل ذا
فالآن فافخر في جميع الورى
تبخس من حقك ما قد علم
على النواوير وحاشاك ذم
وفضل من لا فارقته النعم
بعز من قد حزت تشريفه

وأشدي لنفسه الفقيه أبو الحسن بن علي في النرجس الكبير الذي تسميه العامة القادوسي تشبيهاً
بالقادوس على لغتهم، وصوابه القدس أبياتاً رفاقاً تضمنت معاني دقاً موصوله بمدح الحاجب سراج
الدين الثاقب وهي:

في النرجس القدسي والنور والقصب
له من التبر كأس قاعه لحج
مشم طيب إذا استنشيت زهرته
ومائل الجيد من سكر النعيم به
كغادة ثوبها من سندس طلعت
فكيف يعقل حظ النفس من طرب
حسن يفوق به تربيته في النسب
موسع العلو قد أبداه للعجب
وظرف أنس إذا ما شئت للنخب
حكى تلى الثمل المشغوف باللعب
للشرب في كفه كأس من الذهب
من كان يلحظ هذا الحسن من كتب

ثم دخل إلى المدح فقال:

يا حاجباً رقت في الكتب سيرته
ويا عماداً له يوماً ندى ووغى
إن دمت للعجم لم يعجم لها خبر
بالحبر وانتقشت بالتبر في القصب
ذا للأيدي وذا للبيض واليلب
وأعرب السعد بالإقبال للعرب

قوله: حسن يفوق به تربيته يعني النرجس الأصفر المعروف، والنرجس المسمى بالبهار وقوله قاعه لحج
اللحج: الضيق، ولم أر لأحد قبله في هذا الصنف من النرجس وصفاً، وهو معدوم عندنا بإشبيلية.. وكان
كتب إلي مع هذه القطعة بيتين وهما:

اسأل أبا عامر عنه ابن مسلمة
إن صار قوم إلى قصف على مهل
تسأل خبيراً بمعنى الظرف والأدب
طواهم بخطا التقريب والخبب

وقال صاحب الشرطة أبو بكر بن القوطية يصفه في أبيات وهي:

زبرجد فوقه نضار
كأنما هب من كراه
وطاب عند المشم حتى
قد شارك الدهر فهو ليل
فأول الخلق منه ليل
أبدعه في الرياض منش
مخلص لم تذب نار
وسنان أو شفه انكسار
للمسك من بينه انتشار
وافاه من صبحه اصفرار
ومنتهى خلقه نهار
له على الخلقة اقتدار

شبه خضرة سوقه بسواد الليل، والخضرة والسواد عند العرب بمتزلة. ويقرب من معنى هذا القطعة ما أنشدنيه لنفسه فيه الفقيه أبو الحسن بن علي وهو:

أرى النرجس التبري يعنو له الفكر
وأيقر عن أوضافه النظم والنثر
كأن الدجا قد صاغ خضرة ثوبه
وألقى عليه حسن صفرتة الفجر
تخال به في الروض أقيال معشر
ثيابهم خضر وتيجانهم صفر
يحييك بالتأنيس رونق حسنه
ويلقاك منه قبل رؤيته النشر

قال أبو الوليد: ولي قطعة في النرجس موصولة بمدح ذي الوزارتين عباد - وصل الله حرمة وأطال مدته - وهي:

وروض أريض لم يزل يغتذي بما
يروح عليه من سحاب ويغتذي
بدا النرجس المصفر فيه مباحياً
بلون كلون المستهام المسهد
ترى كل نور منه فوق قضيبه
كلمة تبر فوق جيد زبرجد
إذا ما سرى منه نسيم لواله
سرى عنه جلباب الجوى المتوقد
حكى منظرأ نصرأ وخبرأ خلائق الن
نجيب أبي عمرو سليل محمد
فداه عدها كم له من فضيلة
وفضل ندى يغني به كل مجتد

قال أبو الوليد: هذا ما جمعه في النرجس، ويجب أن نبدأ بذكر الورد، ونورد ما وقع إلينا فيه من تمثيل حسن وتشبيه.

الورد

لم يوجب تأخير أمره، ولا ولد إرجاء ذكره تأخر منزله، ولا انحطاط رتبته، وإنما بيننا أن نقدم من تقدم به زمانه، ونبدأ بمن بكر به أوانه، وقد مضت مشاهير الأنوار المبكرة التي كثر القول فيها، وتردد الوصف لها.

فمن المستندر في الورد قول الحاجب أبي الحسن جعفر بن عثمان المصحفي وقد أهدى إليه الوزير زياد بن أفلح ورداً سيق إليه من ربه في شهر كانون الآخر وهو - أعني قول المصحفي -:

لعمرك ما في فطرة الروض قدرة
تحيل بها مجرى الزمان عن الحد
ولكنما أخلاقك الغر نبهت
بربعك في كانون نائمة الورد

كأنك قد أمطرتها ديمة المجد

وأجريت في أغصانها كرم العهد

فلما وصل هذا النظم المستملح إلى زياد بن أفلح بعث إليه بوردة كان احتبسها لنفسه فكتب إليه ثانية بيتين وهما:

فاجأني كانون بالورد

فزادني وجداً إلى وجدٍ

ورد العلاء أهدى لنا وردة

يا حبذا الورد من الوردِ

ومن السري السني قول الوزير الكاتب أبي مروان الجزيري رحمه الله:

أهدى إليك تحية من عنده

زمن الربيع الطلق باكر وردهِ

يحكي الحبيب سرى لوعده محبه

في طيب نفحته وحمرة خدهِ

وكتب أيضاً أبو مروان إلى الوزير أبي مروان عبد الملك بن شهيد في أخريات أيام الورد بأبيات أنيقة الصفات وهي:

قل للوزير الذي جلت فضائله

فسر لنا شرح معنى سال سائله

وأى وصليه موجوداً ومفتقداً

أولى وأجدر أن ترعى وسائله

وقد أتاك لتوديع على عجل

خضراً مقانعه حمراً غلائله

فامنحه منك قبولاً واقض نهمته

من الوداع فقد شددت رواحله

لا زلت دهرك محبواً زيارته

إذا انقضى عامه وافاك قابله

وبلغني أن الوزير ابن شهيد جاوبه بأبيات لم تقع إلى ولا وردت علي. وأنشدني الوزير أبو عامر بن مسلمة للوزير أبيه - رحمه الله عليه - أبياتاً مطبوعة كتب بها إلى الوزير عيسى بن سعيد يستدعيه إلى الفصد، تضمنت وصفاً حسناً للورد وهي:

ما يطيب التفجير دون صديق

محص مخلص شقيق شقيقِ

وقد اخترته نهراً بهياً

كمحياك مستنير الشروقِ

عندنا الورد قد تألف من لو

نين لون المها ولون العقيقِ

كخود تبرقت بحياء

فوق ديباجها الأنيقِ الدقيقِ

فتفضل وخف نحو صديق

أنت في نفسه أجل صديقِ

ونزل أبو عمر يوسف بن هارون الرمادي على بني أرقم بوداي آش فقدم إليه فيما أكرم به طبق ورد، وكان في فصل الشتاء فاستغربه، ثم أخذ منه وردة واحدة وقال بديهية:

يا خدود الحور في إخالها
اغتربنا أنت من بجانة
واجتمعنا عند إخوان صفاً
عصبة إن سئلت عن نسبة
إن لثمي لك قدامهم
لاجتماع في اغتراب بيننا
قد علتها حمرة مكتسبة
وأنا مغترب من قرطبة
بالندى أموالهم منتهبة
فإلى أرقمها منتسبة
ليس فيه فعلة مستغربة
قبل المغترب المغتربة

ومما يستحسن فيه، وتستملح معانيه، قطعة لأبي عمر أحمد بن دراج القسطلي، موصولة بمدح المظفر بن أبي عامر - رحمه الله - وهي:

ضحك الزمان لنا فهاك وهاته
قد جاء بالتأريخ من أغصانه
وكساه مولانا غلائل سيفه
من بعد ما نفخ الحيا من روحه
إن كان أبدع واصف في وصفه
كمديح سيف الدولة الأعلى الذي
ملك ينم الجود في لحظاته
وحياته إن كان أبقى حاجة

أو ما رأيت الورد في شجراته؟
وبخجلة المعشوق من وجناته
يوماً يسر بله دماء عذاته
فيه وعرف المسك من نفحاته
فلقد تقاصر عن بديع صفاته
أعيا فأغيا في مدى غاياته
واليمن والإيمان في عزماته
لمن ارتجاه غير طول حياته

ولأبي القاسم بن شبراق في وردة لم تفتح وصف حسن مستملح:

خجلت إذ تأملتها العيون
وردة وردت دموعي شوقاً
بنت غصن يقر بالكرم الده
واستسرت عن العيون حياء
سترت وجهها ببرقعها واس
خجلاً في احمرارها يستبين
للتّي خدها بها مقرون
ر لها في رياضها والغصون
وعرا عرفها الذكي سكون
تقبلنا من الفتون فنون

كالفتاة الحبية انتقبت كي

لا يرى وجهها الجميل المصونُ

وكتب الوزير أبو عامر بن مسلمة إلى ذي الوزارتين أبي عمرو عباد - أعزه الله وأحسن ذكراه - في زمن
الورد يصفه فأحسن الوصف وأبدع التشبيه أنشدنيه وهو:

عباد يا خير الورى	ومن به تزهى المدحُ
يا قمر الأرض ومن	علا سماء ورجحُ
أما ترى الورد وقد	رنا بطرف ولمحُ
كأنه دم جرى	على طلى بيض وضحُ
أو خد غض عضه	لحظ محب فانجرحُ
كأنما نسيمه	عن خلق منك نفحُ

وبعث الفقيه أبو الحسن بن علي بورد مبكر في سباط إلى ذي الوزارتين القاضي -أعزه الله وأذل عداه -
وكتب معه:

ليهنك يا واحد المكرمات	وأهدى الملوك لقصد الصراطِ
جني من الورد قد حثه	إليك تودده في سباطِ
وما ذاك أيام إقباله	ولا وقت تنصيده في البساطِ
أصاب بإسراعه فاحبه	وغفراً لسائرته فهو خاطِ

وقال أيضاً الفقيه أبو الحسن يصفه في قطعة رائعة متضمنة لصفات فائقة موصولة بمدح ذي الوزارتين
القاضي - أيد الله يده وحصد من حسده -:

للورد فضل السبق عند المفخر	بالمنظر السامي وطيب المخبرِ
ورق من الياقوت نظم فوقه	شذر من الذهب السبيك الأصفرِ
ونسيم فوح ليس يبلغ طيبه	عبق العبير ولا دخان العنبرِ
نقص الزمان ضنانة من عمره	وكذا النفيس القدر غير معمرِ
والنور غير الورد ليس لشخصه	دون السباطة ذابلاً من مقصرِ
والورد يرفع غضه ويببسه	رفع الأكف ظروف مسك أذفرِ
عمت منافعه كما عم الورى	جود ابن عباد فريد الأعصرِ

وله أيضاً فيه بيتان استوليا على غاية الإحسان وهما:

نظر إلى الروض غير متدد تبصر جمالاً يصوغه الدهرُ

كأنما الورد فيه أطباق يا قوت عليها مغالق صفرُ

ولصاحب الشرطة أبي بكر بن القوطية فيه قطعة سرية موصولة بمدح ذي الوزارتين أبي أيوب بن عباد أبقاه الله وأسبغ عليه نعماه وهي:

نور الربا خول والورد سلطان بدا قضى قبل آذار ونيسانُ

سر طوته فصول العام حاسدة لفضله إذ له السلطان والشانُ

حتى إذا ما الربيع الطلق نم به بدا وقد ضاق عن مثواه كتمانُ

معالجاً فتح أوراق تطبقه كما يعالج فتح العين وسانُ

حتى تفتح من أكمام بردته كما تفتح بعد النوم أجفانُ

أما النسيم فطيب لا أكيفه واللون حسناً به الألوان تزدانُ

فما سوى الورد في النوار من ملك ولا كمثل أبي أيوب سلطانُ

ملك يريك اهتزاز الروض يتبعه حلم رسا منه فوق الأرض ثهلانُ

وللوزير الكاتب أبي حفص بن برد فيه أبيات بديعة ورفيعة التشبيه وهي:

هذا الربيع وكنت ترقبه فانظر بعيشك كيف تصحبه

قد نشرت حلل النبات به فبدا مفضضه ومذهبه

والورد قد سمت الغصون به تجلوه والأبصار تخطبه

والشمس قد ضرب الضحاء بها في صبغه فذكاء تلهبه

فكأن من يهواه مخجله وكأن رياه مطيبة

وكتب أبو جعفر بن الأبار إلى الوزير أبي عامر بن مسلمة في زمن الربيع يصف الورد ويحضه على إشار الأنس، وجلاء صدأ النفس، فأحسن إحساناً يقرب على متأمليه، ويبعد على متناوليه، ووصف الورد بعد صدر متقدم من الشعر:

الورد ورد للعيون من الظما فانذكر أذمته الوكيذة واحفظ

في لبسة التقوى يروقك منظراً فامنحه بالإنصاف طرفك والحظ

وإذا الهجوع نأى فخير منوم وإذا السرور دنا فأحسن موقظ

يا ممطري بفعاله ومقاله
ومحافظي بوداده لا محفظي
افطن إذا أبدى الزمان تبالها
وإذا تواهن جفنه فاستيقظ
ويكل صرف فاستقد من صرفه
وافظظ برقتها عليه وأغلظ
فالفهم يفرق من لآليء فرقتها
والحزن يطفأ عن سناها الملتظي
صفراء صفر الكأس من جثمانها
تتخطف الأبصار مهما يلحظ
لازلت تسلم يا بن مسلمة الرضا
معطي الأمان من الخطوب البهظ

قوله: في لبسة التقوى يعني الحياء، ومن قول الله تعالى: "وريشاً ولباس التقوى"، قيل: الحياء. وقوله: محافظي. هو من الحفظ والمراعاة. ومحفظي: من الإحفاظ وهو الإغضاب. وقوله: فالفهم يفرق: يرتاع، ويفزع. والفرق لغة في المفرق من الرأس. وقوله: صفر الكأس من جثمانها: الصفر: الخيالة، والجثمان: الجسم، وفيه لغتان جثمان وجسمان. فجأوبه الوزير أبو عامر بن مسلمة بأبيات بديعة الصفات بريعة الكلمات وهي:

يا واحد الأدباء غير مدافع
ومن اغتدى في الفهم ناراً تلتظي
واقاني الشعر البديع نظامه
فأزاح عني كل أمر محفظ

فخرألورد الروض إذ حاز المدى
ببدائع من ذهنك المتيقظ
الورد عندي في الخدود نفاسة
ورياسة مهما يقس أو يلحظ
هو آخر وله التقدم أولاً
كم آخر قد حاز مفخر من حظي
وقد اعتمدت على الذي حبرته
في نظمك الزاري بلفظ اللفظ
وفضضتها صفراء يعشي ضوءها
حدق العيون الرانيات اللحظ

قال أبو الوليد: وأهدى إلي صاحب الشرطة أبو بكر بن القوطية ثلاث وردات ليلة المهرجان، وكتب إلي معها أبياتاً أنيقة المعنى دقيقة المغزى وهي:

بعثت بأغرب الأشياء طراً
وأعجبها لمختبر ومخبر
بوررد ناعم غض نضير
يروقك ناسماً طوراً ومبصر
أتى في المهرجان فكان فوق ال
بكير غرابية وهو المؤخر
وإغراب المؤخر عن أوان
يجيء به كإغراب المبكر

ولما أن غشيت الروض منه
بروض فيك من مدحي منور
وقلت له: استمع لحلى كريم الس
سجايا منتقى من سر حمير
تفتح من كمائمه وأبدى
من النفحات ما قد كان أضمر
فماء ثناؤك العالي سقاه
ومن أخلاقك العليا تقطر
فأوسعها القبول ودم عزيزاً
مكيناً ما جرى نجم وغور
فلما وردت الورد الثلاث علي، ووصلت إلي، بعثت إلى أبي -وقاه الله بي - وكتبت إليه معها أربعة
أبيات بديهة وي:

يا من تآزر بالمكارم وارتدى
بالمجد والفضل الرفيع الفائق
انظر إلى خد الربيع مركباً
في وجه هذا المهرجان الرائق
ورد تقدم إذ تأخر واغتنى
في الحسن والإحسان أول سابق
وافاك مشتملاً بثوب حياته
خجلاً لأن حياك آخر لاحق
ولي أيضاً فيه قطعة موصولة بمدح أبي - أبقى الله علي ظله وقدمني إلى المنون قبله - وهي:

إنما الورد في ذرى شجراته
كأجل الملوك في هيئاته
راشق منظراً وخبراً وفذ
في حلاه التي حلت وصفاته
نفحة المسك من شذا نفحاته
خجل الخد من سنا خجلاته
مزجت حمرة اليواقيت بالدر
ر فجاءت به على حسب ذاته
مثلما جاء من سماح وبأس
خلق الحميري سم عداته
إن يعد فالوفاء حتم عليه
فرضه في صلاته كصلاته

ولي قطعة نثر كتبت بها إلى صاحب الشرطة أبي الوليد بن العثمان وبعثت معها ورداً مبكراً: بعثت بخدود
المعشوقين قد أدمتها ألحاظ العاشقين، وأدمت عليها ناظرة فتساقطت هكذا ناضرة فاحكم على العيون
للخدود على ألا تعود إلى الصدود والسلام.

قال أبو الوليد: وحين استوفيت ما حصل عندي من الوصف للورد أبدأ بذكر ما عثرت عليه من
المستحسن في وصف السوسن فهو صاحب الورد في زمانه، ومشاركه في أوانه.

السوسن

قال أبو الوليد: يقال: سوسن وسوسان بالألف ودونها، وقد تكررت في الشعر اللغتان، وترددت التسميتان. فمن مליح ما جاء فيه، وشبه به، قول أبي عمر أحمد بن فرج الجياني وهو:

بعثت بسوسن نضر
ينم كجونة العطر
كأكؤس فضة فيها
نفايا شهلة الخمر
أو الوجنتان منك دنت
إلى وجناتي الصفر

وللوزير الكاتب أبي مروان بن الحزيري فيه وصف مفضل له، مستحسن منه وهو:

وملسن الطاقات أبيض ناصع
يزهى بأصفر من جناه فاقع
أعداد زهرته إذا حصلتها
ست سوى عدد الرقيب السابع
سكنت قرارة حجره كلفاً به
كالأم تكلف بالصغير الراضع
صافي الأديم إذا تخلق صدره
بخلوق أروسها الذكي المائع
أهدى الصبابة والهوى بنسيمه
وبديع منظره الأنيق الرائع
سموه بالسوسان ظلماً واسمه
في ما خلا ساسان غير مدافع
لما استذاع بفارس كلفت به
أمالكه فدعته باسم شائع

الرقيب: هو القائم في وسط السوسنة وساسان: اسم ملك فارسي. أراد بهذا التمليح التنويه به، والترفع من قدره. ومن المستندر المستحسن في وصف السوسن، قول أبي عمر الرمادي وهو:

سوسن كالسوالف البيض لاحت
لمحب متيم من حبيب
قد أعارت عيوننا كل حسن
وأعارت أنوفنا كل طيب
بعضها عاشق لبعض فبعض
لمحب والبعض للمحبيب

فالحبيب المبيض منها إذا اصفر
ر سواه اصفرار صب كئيب
لهما ثالث أناف كواش
قام يحكي هواهما كالخطيب
فهما وهو في جميع المعاني
كحبيب وعاشق ورقيب

ولأبي بكر يحيى بن هذيل فيه تشبيه أنيق، وتمثيل دقيق وهو:

ورب سوسنة قبلتها كلفاً
ومالها غير نشر المسك منشوق
مصفرة الوسط مبيض جوانبها
كأنها عاشق في حجر معشوق

ولأبي بكر هذا فيه قبل أن يتفتح وصف استحسّن واستملح وهو:

فأول ما يبدو فخلق سبيكة
مخلصة بيضاء أتقنها السبكُ
بنت نفسها فوق الزمرد واقفاً
فلاحت كمثل الدر ضمنه السلكُ
جنى سوسن لولا سنا بشراته
لما زين الأفواه ثغر ولا ضحكُ

ولبعض شعراء الأندلس وقد دخل على المنصور بن أبي عامر - رحمه الله - وبين يديه ثلاث سوسنات إحداها لن تفتح، فسأله وصفها فقال بعد أبيات لم أحتج إلى ذكرها:

تبدو ثلاث من السوسن قائمة
وما تشكى من الإعياء والكسلِ
فبعض نواره بالحسن منفتح
والبعض منغلق عنهن في شغلِ
كأنها راحة ضمت أناملها
ممدودة ملئت من جودك الخضلِ
وأختها بسطت منها أناملها
ترجو نذاك كما عودتها فصلِ

قال أبو عمر أحمد بن دراج القسطلبي يصفه فأحسن وأبدع، وأغرب واخترع:

إن كان وجه الربى مبتسماً
فالسوسن المجتلى ثناياهُ
يا حسنه سن ضاحك عقب
بطيب ريا الحبيب رياهُ
خاف عليه الحسود عاشقه
فاشتق من ضده فسماهُ
وهو إذا مغرم تنسمه
خلى على الأنف منه سيماهُ
كما يخلي الحبيب غالية
في عارضي إلفه لذكراه

قوله: خاف عليه الحسود. البيت، يعني أنه سماه سوءاً وهو حسن خوف العين والحسد، وهو تلميح مستحسن.

ولأبي عمر أيضاً فيه وصف ثان معدوم المثال موسوم بالجمال صح عندي أن عبادة بن ماء السماء كان يقول: لم يجترع بالأندلس في معنى من المعاني كاختراع القسطلبي في السوسان وهو في قطعة مطولة كتب بها إلى المظفر ابن أبي عامر أنا ذاكر منها ما تشبث بذكر السوسان من المستحسن وهو:

جهز لنا في الروض غزوة محتسب
واندب إليها من يساعد وانتدبُ
واهزز رماحاً من تباشير المنى
واسلل سيوفاً من معتقة العنبُ
وانصب مجانيقاً من النيم التي
أحجارهن من الرواطم والنخبُ
لمعاقل من سوسن قد شيدت
أيدي الربيع بناءها فوق القضبُ

شرفاتها من فضة وحماتها
 مترقبين لأمره وقد ارتقى
 كأمير لونة قد تطلع إذ دنا
 فلئن غنمت هناك أمثال الدمى
 تحفاً لشعبان جلا لك وجهه
 واستوف بهجتها وطيب نسيمها
 حول الأمير لهم سيوف من ذهب
 خلل البناء ومد صفحة مرتقب
 عبد الملك إليه في جيش لجب
 فهنا بيوت المسك فاغنم وانتهب
 عوضاً من الورد الذي أهدى رجب
 فإذا دنا رمضان فاسجد واقترب

الشرفات: أوراق السوسن، والسيوف: النواوير المصفرة في أسفلها. والأمير القائم وسط السوسنة هو من الاختراعات الشريفة، والابتداعات البديعة.

ولأبي بكر عبادة بن ماء السماء إلى صديق له يستهديه سوسناً أبيات وصفه فيها وصفاً مستحسناً:

دمت بإنعام وإحسان
 لو كان نفساً حيوانية
 كأنه أنمل حسناء لم
 إن أنت أنعمت بسوسان
 ما كان إلا نفس إنسان
 تخضب يديها خوف غيران

وأنشدني لنفسه فيه الوزير أبو عامر بن مسلمة أبياتاً مطبوعة محكمة وهي:

وسوسن راق مرآه ومخبره
 كأنه أكؤس البلور قد صنعت
 وبينها ألسن قد طرفت ذهباً
 كأنه خلق ميم في تعقفه
 وجل في أعين النظار منظره
 مسدسات تعالي الله مظهره
 من بينها قائم بالملك تؤثره
 مداده ذوب عقيان يصفره

قال صاحب الشرطة أبو بكر بن القوطية يصفه بأوصاف سرية وهي:

أما ترى الروض حسا
 فصور السوسن من
 مدهنة من فضة
 واضحة فاضحة
 إن رام كتم لثمها
 تجد بقايا طيبه
 بياً نحا إقليدسه
 دائرة مسدسه
 بتبرها ملبسه
 صاحبها مدلسه
 وشمها انظر معطسه
 بأنفه محتبسه

وفوقها رقبية

منها لها محترسه

نايلة راحة

سائفة مترسه

كان اسمها نسوس لا

كن قرئت منكسه

قوله: فوقها رقبية يعني القائمة وسط السوسنة. نايلة: ذات نبل، جعل التي تحديق بالرقبية في أسفلها نبلاً وجعل أيضاً منها رماحاً في قوله: راحة وسائفة: يحتمل أن يجعل الوشائع الصفر التي حول الرقبية سيوفاً ويحتمل أن تكون السيوف الأوراق البيض. ومترسة: ذات ترس. ولا شك أنه من الأوراق البيض. وقوله: نسوس أراد مستقبل فعل الساسة، وهو مליح فيه معنى التنويه به. وللفقيه أبي الحسن بن علي فيه أوصاف حسنة وتشبيهات جيدة فمنها قوله:

أرى صفرة السوسان فوق بياضه

كصفو مدام في إناء مفضض

بدا مثل حق العاج في فرع غصنه

بأكرم ملبوس وأجمل معرض

ولما دنا وقت النثار تشققت

نواويره عن حلي حسن له نضي

كذلك حقاك الحلي صون لما حوت

كفات له من خاتل متعرض

قوله: نضي بمعنى: جرد. كفات له: أي ستر. قال الله عز وجل: "ألم نجعل الأرض كفاتاً" أي سترًا. وخاتل: بمعنى خادع.

وأنشدي أيضاً لنفسه أحسن تشبيه موصولاً بمدح ذي الوزارتين أبي عمرو عباد - حرس الله نفسه، كما قدس غرسه - وهو:

كأنما السوسن الدرّي السنة

تمجد الله مجري التبر في غربه

أندى النواوير إن قبلت صفحته

حباك من طيبه حظاً ومن ذهبه

وما أرى غير عباد له شبيهاً

في الحسن والفوح والمأثور من أدبه

ومن المستندر المختار أبيات كبت بها أبو جعفر بن الأبار وهي:

أنعم فقد حسن الزمان وأحسنا

وتبالهت عنك الخطوب لتقطنا

أو ما ترى برد الربيع مفوقاً

يصبي العيون بمجتلى وبمجتى

والسوسن العبق الجيوب تخاله

من ناصع الكافور صور أسنا

حفت قراضات النضار مجرداً

منه أقلتها قصيرات القنا

فكأنما أوراقه وكأنه

بيض سلن لقتل جان قد جنى

المجرد: هو القائم وسط السوسنة. والقراضات: هي النواوير الصفر في أسفلها وكأنه في آخر بيت كناية راجعة إلى مجرد، وهو تشبيه قوي وتمثيل سري. ولأبي جعفر بن الأبار أيضاً أبدع تشبيه وهو:

ض منظرأ حين يلحظ

كأنما السوسن الغض

مشطب قد تعظعظ

فهر بهاؤون در

الفهر: القائم وسط السوسنة، والهاؤون: سائرهما وتعظعظ: مال وعدل. ولأبي علي إدريس بن اليمان فيه أوصاف مستطرفة، وتشبيهات مستطرفة منها قوله:

له وجه البريء من الذنوب

ممهى الحسن مشقوق الجيوب

تفرج لوعة الدنف الكئيب

تفرج عن مناكبه قميص

فقام بلا خطاب كالخطيب

وقد علت عمامته بورس

تضمن بطنه ينبوع طيب

على أنبوب كافور يراع

الممهى: المرقق: يقال: أمهيت السيف أمهيه: إذا أرففته وجلوته. وبني القطعة كلها على وصف القائم وسط السوسنة.

ولأبي علي إدريس بن اليمان أيضاً قطعة بديعة التشبيه موافقة الوصف لكل ما فيه وهي:

عن فلج في روق

وضاحك كالفلق

مذهب مندلق

على جفاني مرود

وخارج من نفق

كمنتج من غرق

على ابيضاض يقق

بين اصفرار فاقع

في راحة أو طبق

كأنما كلاهما

في ورق من ورق

برادة من ذهب

الفلج: الفرجة بين الأسنان، والروق: طولها. والحفافان: الجانبان وعنى بالمرود القائم وسط السوسنة. والمندلق: الناقىء المندفع.

قال أبو الوليد: ولي فيه قطعة فيها اختراع تشبيه وصلتها بمدح الحاجب - حجه الله بي عن النوائب - وهي:

للأنس بالراحتين

وسوسن يتهادى

يعد بنأي وبين	نعم المواصل لو لم
ذخسة من لجين	كأنما خلقه الفذ
تركبت في يدين	أو أنمل بضة ما
ينام طرفة عين	وبينها حارس لا
على جمال وزين	علا وأشرف منها
تقى على الشعريين	كما علا الحاجب المن
بين الخطوب وبيني	ملك به حال دهري

قال أبو الوليد: ووقعت إلي في السوسن الأزرق وهو الخرم صفات محكمة وتشبيهات متقدمة.

الخرم

فمن بديعها ورفيعها قول الوزير أبي عامر بن مسلمة وهو:

ويا حبذا حسنه المونقُ	ألا حبذا السوسن الأزرق
جری وسطه ذهب مشرقُ	حكى لونه لون فيروزج

وللفقيه أبي الحسن بن علي فيه أبداع اختراع وأغرب تشبيه وهو:

عين تدبيجه العجيب وورده	لاح لي خرم الصحارى فراق ال
بعد أن طال بالأحبة عهده	جاء كالزائر الموافي لوعده
زان ذا رقمه وذا لازورده	أطلعت حلتاه وشياً وتبراً
م لجانيه ماؤه وفرنده	أي نصل يفري الحوادث لو دا

وله أيضاً فيه قطعة موصوفة بمدح أبي - وقاه الله بي - وهي:

زهر الروض خرم الصحراء	بز ثوب البهاء واللآلاء
وتردى بحلة زرقاء	عاف ثوب البياض لون أخيه
كي سنا نورها أديم السماء	لتراه العيون في حلة يح
ك مهناً بملك طير الهواء	لو حواها الطاووس أصبح لا شك
قد أناف به على العليا	عزة في طباعه وعلو
في اقتناء العلا وكسب الثناء	كحبيب بن عامر فهو فذ

ومن التشبيه السني فيه والوصف السري له قول صاحب الشرطة أبي بكر بن القوطية وهو:

ومغرب اللون في مسلاخ طاووس
كأنما اختلست قطعاً غلائله
شخت المآزر لاذي الظهائر قد
كأنه كسف أفق ماله حبك
كأن رشح سقيط الظل أوسطه
لا زال في مجلسي أنا بهيئته
فيروزجي بصنع الله مغروس
من الغمام أو فضل الحناديس
أتاك يرفل في ثوب له سوسي
أو لازورد أو أذئاب الطواويس
نضح يمد على آثار تدنيس
ولا توخى اسمه شملي ولا كيسي

إنما عمى في البيت الآخر الخرم اسمه، دعا ألا يتوخى الخرم شمله ولا كيسه.

قال أبو الوليد: ولي فيه تشبيه طابقه وهو:

وخرم حلو الحلوى
تلوناً ومنظراً
يبود لعيني من لمح
كأنه قوس قزح

قال أبو الوليد: لم يقع إلي في السوسنين غير ما أوردته. ومن النواوير المشاهير التي كثر القول فيها والوصف لها نور النيلوفر، وأنا مودع بابه ما حصل عندي فيه من المستندر.

النيلوفر

من السابق في ميدان التفضيل الفائق عند أهل التحصيل قول ذي الوزارتين القاضي الجليل أمله علي وهو:

يا حسن بهجة ذا النيلوفر الأرج
كأنه جام در في تألفه
وطيب مخبره في الفوح والأرج
قد أحكموا وسطه فصاً من السبج

وله - أعزه الله وأذل عداه - يصفه بوصفين غريبين، ويشبهه بتشبيهين، عجيبين في قطعة واحدة وهي:

كأنما النيلوفر ال
مقلة خود ملئت
مستحسن الغض البهج
سحراً وغنجاً ودعج
أو خاتم من فضة
وفصه من السبج

شبه في البيت الثاني بالعين السواد الذي بين بياضه وهو أولى بهذا التشبيه، وأحق أن يصاغ فيه من كل ما شبه بالعين من البهار وغيره الذي لا سواد فيه يؤيد حقيقة تشبيهه وينصر صحة تمثيله. ومثل هذا التشبيه المعدوم التشبيه، والتمثيل المنقطع المثل لو وقع لمشتغل بصناعة الشعر، عاكف على صناعة النظم مجهد

نفسه فيها معان لمعانها لاستغرب غاية الاستغراب، واستعجب نهاية الاستعجاب. فكيف ترى فضله وتعاين نبهه. وهو لا يعاني هذا ولا يتفرغ له، وإنما هو عفو سجيته وفي بديهته - صان الله لنا حذقه كما أوجب علينا حقه - .

وقال أبو عمر يوسف بن هارون الرمادي يصفه فأبدع بدعاً في قطعة جمعت الجزالة الرقة معاً وهي:

إذا سقى الله روضة مطراً
فخص بالسقي كل نيلوفر
تستتر أوراقه زمردة
ليلاً وعند النهار لا تستتر
خافت عليه اللصوص فاشتملت
عليه ليلاً من خوف أن يظهر
إذا الزنابير من مغالقه
لم تتحفظ فبينها تقبر
كأن أجفانه جفون الذي
أهواه لا تستطيع أن تسهر
كأنها كؤوس فضة فرشت
قبعانها بالزمرد الأخضر
تتعم في حسنه ونكهته
فأنت في منظر وفي مخبر

الزنابير: جمع زنبور، وهي النحل، وإنما عني بالبيت انغلاق أوراقه ليلاً، وقصد النحل دون غيرها لأن النيلوفر يسمى قاتل النحل لطلبها أبداً أكل ما داخل أوراقه فرمما فعلت ذلك وقت انغلاقه فامتنت من الخروج.

ولم أر لكل من صنع فيه، وعني بوصفه ذكر أمر الزنابير إلا للفقير أبي الحسن ابن علي في قطعة عجيبة أنشدنيها وهي:

ما لنيلوفر الحقائق يقظاً
ن مع النور هاجعاً في ظلامه
أشبه الإنس في تصرف حالي
ه ووقتي سهاده ومنامه
وتوقيه في الدياجي بإغلا
ق نواويره وضم كمامه
لقبوه بقاتل النحل لما
أبصروا النحل مقصداً لسهامه
لم يجر في القصاص إذ ذلك لص
سارق بالنهار شهد ختامه

وللوزير الكاتب أبي الأصبع بن عبد العزيز في انغلاقه تشبيه دقيق، وتمثيل أنيق وهو:

ونيلوفر فاق في فضله
صنوف النواوير من شكله
وفاتهم بالذي حازه
كما قصر الكل عن نبيله

يبيح نهاراً لزواره
ويمنع بالليل من وجهه
كبائع عطر بحانوته
فإن جاءه الليل أفضى به
محيماً يرغب في وصله
ليأخذ بالحزم في فعله
ضياء النهار إلى ليله
إلى سده وإلى قفله

وأنشدني لنفسه فيه الوزير أبو عامر بن مسلمة أبياتاً رائعة تضمنت أوصافاً رائعة موصولة بمدح الحاجب - لا أعد منا الله جاهه كما أعدنا أشباهه - :

يا حبذا النيلوفر الطالع
كأنه مخزنة من مهأً
وحوله السنة ستة
كل لسان أبيض ناصع
قام على خضراء من سوقه
ركوع أملاك الورى للذي
ذاك ابن عباد سليل العلا
دام دوام الدهر في عزة
ومجتلاه الناضر الناصع
في وسطها زمرد ساطع
من فضة أتقنها صانع
والطرف منه أصفر فاقع
فكل إبريق له راعع
نداه دان والحيا شاسع
الحاجب المرتفع الرافع
تبقى ويبقى الحاسد الخاضع

وللفقيه أبي الحسن بن علي تشبيه لونه وصف متناه ليس له مواز ولا مضاه وهو:

كأنما زهرة النيلوفر اختلست
فالنور منقطع عن جزم عنصره
فعل أشتها من أصل طبعهما
ماذا تألف من شمل الجمال به
قطعاً من الليل قد حف الصباح به
والليل ممتنع من حكم غيبه

ولصاحب الشرطة أبي بكر بن القوطية في جميع أحواله وصف أغرب عن كماله وهو:

وذات جسم كاللجين المنسبك
مبيضة الأثواب من نسج البرك
خضر سراويلاتها حصر التكدك
كأنما العنبر فيها قد فرك
والمسك في قيعاها قد امتسك

ناسكة نهارها مع النسك
حتى إذا الليل تدانى واشترك
وأن أن يأتي المحب المنتهك
غلقت الباب وقالت: هيت لك

ومن السحر المنتحل، والكلام المنتحل في حالاته كلها، وصفاته بأسرها، ما أنشدنيه لنفسه أبو جعفر بن الأبار موصولاً بمدح ذي الوزارتين القاضي - أدام الله أيامه وأسبغ علينا إنعامه - وهو:

وناصع اللون أسود الحدقه
كذي دلال لم يستطع أرقاً
هام به الليل والنهار معاً
لا تمثروا في الذي تضمنه
نيلوفر أحكمت بدائعه
ظاهر ثوب كأن خالقه
سليل عباد الذي حشمت
المجد أفق غدا له قمراً
جفونه بالعشاء منطبقه
فنام والنور واصل أرقه
فصد عن ذا وخص ذامقه
تلك سويداء قلب من علقه
لا يحتوي خلقه ولا خلقه
من عرض قاضي القضاة قد خلقه
منه وجوه السحائب الغدقه
والحق حق حوى به طبقه

ومما يشاكل هذا براعة، ويشبهه بزاغة قوله: أيضاً فيه موصولاً بمدح ذي الوزارتين أبي عمرو عباد - أعز الله وأحسن ذكراه - وهو:

إذا النور خص بمدح فما
وأوراقه كعبة من لجين
توسط عباد المرتجى
همام إذا هم أضحت له
إذا شئت وجدان أفضاله
لنيلوفر الروض لا يعبد
توسطها الحجر الأسود
لظى الضرب والحرب إذ توقد
متون الظبي والقنا ترعد
وجدت وشرواه لا يوجد

قوله: شرواه الشروي: المثل. وأنشدني أيضاً لنفسه في تشبيه خلقه وخلقه بيتين سرين وهما:

كأن نيلوفر الرياض إذا
رومية بضة منعمة
ما الليل أدجى أوهم أن يدجي
تضم طفلاً لها من الزنج

ومما يشبه أيضاً فيه أسوده بالزنجي قول أبي القاسم البلخي وهو تشبيه مفضل له، مستحسن منه، وهو:

ونيلوفر غدا يخجل الرا
ني إليه نفاسة و غرابه

كملك الأحبوش في قبة بي
ضاء يرنو الدجا فيغلق بابه

جنت ليل لما تجسم شخصاً
قد من صفحة الضحى جلبابه

الأحبوش: لغة في الحبش. وقال أبو الوليد: ولي في لونه وصف ربما طابق، وتمثيل عساه وافق، وهو:

وروضة رضيت عن
صوب الحيا المستمر

فأظهرت نور نيلو
فر منير أغر

كمحبر من لجين
فيه بقية حبر

قال أبو الوليد: قد أكملت من النواوير ما وقع إلي فيه الوصف الكثير، وبقيت نواوير وقعت إلي فيها أوصاف يسيره وقطع قليلة، ولكني أذكرها على علاقتها، وأورد منها ما حسنت تشبيهاها، وجادت صفاتها، فمنها نور اللوز.

نور اللوز

كاد أن يكون أبكر النواوير، وأول الأزاهير، ولم أعامله بالتأخير إلا لقلّة الوصف له والقول، وذلك كل ما يأتي مما يبكر، وإنما له التأخير من أجل قلة القول فيه، والتشبيه له. فمن المستحسن في نور اللوز قطعة فائقة الوصف، رائقة الرصف أنشدنيها لنفسه صاحب الشرطة أبو بكر بن القوطية موصولة بمدح ذي الوزارتين أبي عمرو عباد أعزه الله:

وأبيض اللون ذفلي غائله
عليه من نسج كانونين أبرأد

يقول مبصره: سبحان فاطره
كيف استقلت بهذا الحسن أفرأد

يزور والنور لم تفتح كئامه
ولا تقدمه للزور ميعاد

كأنه رائد أو طالع نجداً
أو قائد وصنوف النور أجنأد

تشبه الخوخ في حسن النوار به
يا قوم حتى من الأشجار حساد

نور حوى قصب المضمار منفرداً
كما حوى قضبات السبق عباد

الطاعن الخيل قدماً والقنا قصد
والسيف منقصف والرمح منأد

والموقد النار جوداً للضيوف وقد
جف المزاد وخف الرحل والزاد

وللوزير أبي عامر بن مسلمة فيه أبيات حسنة السبك جيدة الحيك وهي:

يا زهر اللوز لقد فقت في ال
 قد حزت حسنين وحازت نوا
 تعلق بهار الروض حسناً فقد
 قد أمك الوصاف إذ شبهوا
 فلونك المشرب في حمرة
 دفعا لما قلت إذا عاينوا
 فقت النواوير اعتلاء فما
 إحسان والحسن فأنت البديع
 وير الربا حسناً فأنت الرفيع
 أصبحت مخصوصاً بحب الربيع
 غيرك بالخذ و جار الجميع
 من يره أصبح لا يستطيع
 جمالك النورين عند الطلوع
 في زهرها غير سميع مطيع

قال أبو الوليد: ووقع إلي في نور الأبقحوان قطع تستولي على ميدان الإحسان أنا ذاكر جملتها ومورد جميعها.

الأبقحوان

قال أبو الوليد: أنشدني لنفسه فيه الوزير أبو عامر بن مسلمة بيتين بديعين في التمثيل رفيعين في التشبيه وهما:

وأبقحوان راقني نوره
 إذ ظل يرنو بعيون حسان
 كأنه مدهنة من مهأ
 محكمة في وسطها زعفران

وللفقيه أبي الحسن بن علي فيه قطعة معجبة تضمنت أوصافاً مغربة موصولة بمدح ذي الوزارتين القاضي - أطال الله بقاءه وأدام في درج العز ارتقاءه - وهي:

إذا ميزت أنوار كل خميلة
 فنور الأفاق الغض منها ثغورها
 تألفن دراً فوق أغصان سندس
 ونكهة طيب بالصبا تستثيرها
 شكت قضفاً بين النواوير فاتقت
 وجاءت إلى غدرانها تستجيرها
 بنور ابن عباد أضاعت وأشرققت
 ومن وجهه السامي تألف نورها
 ولو أملتة واستجارت بقربه
 لذل مناوئها وعز نصيرها

قوله: شكت قضفاً القصف: الرقة، وهو تمليح مليح في صحبتها الغدر، وربما كانت في غيرها. ومن المستطرف المستظرف قوله:

كأن نور الأفاحي
 در تضمن عسجد

أو لؤلؤ حول صفر
من اليواقيت نضد
وقد بدا في غصون
مخضرة كالزبرجد
تهدي لك المسك فوحاً
مع الأصائل والنذ
يزيده اللحظ حسناً
والعين نوراً مجدد

ومن السابغ برد كماله، الساتغ ورد جماله، قول أبي جعفر بن الأبار في بركة على جوانبها أقحوان وهو:

وبركة بالأقحاح محدقة
تخال ريح الصبا بها صبة
يحل فيها الحباب حبوته
إذا جرت للصبا بها هبة
كأنها راحة بها غصن
حفت من الدر حولها لبة

شبه تكسر الماء براحة: وهي الكف فيها غضن، والغضن: التشنج والتكسر وشبه ابيضاض الأقحوان واتصاله وإحداقه بالبركة بلبه در. واللبه: العقد العالي، سمي بموضعه من الصدر. ولأبي القاسم البلمي فيه تشبيه حسن أنشدنيه وهو:

راق عيني منظر الأقحوان
بنفيس اللجين والعقيان
كفه بالحبيب سوك فاه
بعد عود الأراك بالزعفران

قال أبو الوليد: ولي في بركة عليها أقحوان تشبيه تضمنه بيتان وهما:

كأن الثرى صيرفي له
نطوع من اللازورد البديع
يقلب فيه من الأقحوا
ن درهم من ضرب كف الربيع

هذا ما عثرت عليه وانتهيت باجتهادي إليه في نور الأقحوان من التشبيهات الحسان وحين أكملته أورد ما وقع إلي من المستندر في الشقر.

الشقر

ويسمى شقائق النعمان، وسأذكر ما رأيت من التشبيه في هذا الباب إن شاء الله. فمن جيد التشبيه فيه وحسن التمثيل له قول الفقيه أبي الحسن بن علي موصولاً بمدح ذي الوزارتين القاضي - كبت الله أعداءه وأدام عليهم إعداءه - وهو:

إن الشقائق من حمر الخدود قد اش
تقت ومسودها من حالك اللمم

كأنها في المروج الخضر أبنية
يا بن الذي قد حماها في منابتها
معرفة باسمه في كل مطلع
جدد لها من وكيد العهد حرمتها
حمر قد اصطلمحت من قانيء الأدم
فلم تزل في حمى منه وفي حرم
محفوظة المنتهى مرعية الذمم
وصل لها محدث الإكرام بالقدم

قوله: يا بن الذي قد حماها يخاطب ذا الوزارتين القاضي - أعزه الله - لأنه ابن النعمان الملك الذي نسبت إليه الشقائق وجاء في الخبر قال: خرج النعمان يوماً فمشى حتى انتهى إلى الظهر وقد اعتم بنبته من أحمر وأصفر وإذا فيه من هذه الشقائق شيء لم ير مثله، فقال: احموها. فحموها. فسميت شقائق النعمان بذلك حكى هذا أبو حنيفة ورفع إلى أعشى بكر وذكر أنه كان حاضر النعمان يومئذ. وله أيضاً فيه أبيات عجيبة ضمنها هذا المعنى وهي:

أصبحت طلع الشقائق نهياً
لو أعيد النعمان حياً لراعى
وكان السواد فيها غوال
أو نثير من طيب المسك محض
لجناة الورى بكل طريق
غير وان لها مضاع الحقوق
بسطت في مداهن من عقيق
صب بالعمد في كؤوس الرحيق

ومن الصفات المستحسنة قول الوزير أبي عامر بن مسلمة وهو:

يا نديمي قم اصطحب
إنما العيش بالسما
وتأمل حسن الشق
مثل كأس العقيق في
وعلى العود فاقترخ
ع وبالناي والقده
نق تنشط إلى المدخ
قاعه المسك يلتمح

ومن الصفات السنية المحكمة فيه قول صاحب الشرطة أبي بكر بن القوطية وهي:

وحالك اللون كلون المسك
كأنما أحداقه من سك
مدرع ثوباً دقيق السلك
كأنما صباغه باللك
أزرى بلون الورد لوما يحكي
نسيمه كان بغير شك

ما بين أنوار الربا كالملك

قال أبو الوليد: ولي فيه بيتان ربما أنفرد بتشبيهه وهما:

رياض يحييها الحيا بانسكابه

فتسفر للنظار عن منظر نصر

إذا ما بدت فيها الشقائق خلتها

شعور العذارى لحن في الخمر الحمر

لم أعر في الشقائق على غير ما أوردت، ولا وجدت في وصفها سوى ما ذكرت. ووقعت إلي في نور الباقلاء صفات جيدة وتشبيهات حسنة أذكرها بأسرها وأورد جميعها.

نور الباقلاء

فمن بديع ما قيل فيه، ورفيع ما شبه به قول صاحب الشرطة أبي بكر بن القوطية وهو:

وبنات للباقلاء تبدت

كعيون تفتحت من رقاد

فبياض منها مكان بياض

وسواد منها مكان سواد

وقال أبو جعفر بن الأبار يصفه في قطعة موصولة بمدح أبي - أطال الله لي عمره، ورزقني بره - فاستكمل الصفات بأبدع تشبيهات وأرفع تمثيلات والقطعة:

وباقلاء باقل

يعجب حسناً من رمق

كأنما نوراها

إذ راق خلقاً وخلق

أذقان ببيض غلفت

لمبصر ومنتشق

أو أعين حور جرت

إلى مآقيها الحدق

وهديها مستبطن

في ورق من الورق

أو جنح ليل بقيت

منه بقايا في فلق

أو سيج في درر

أو ثنن بها بلق

كأن للمسك بها

مشقاً بنيات طرق

وعرفه معرف

بأنه فيه فتق

كأن نجل عامر

من خلقه طيباً خلق

ملك إذا صال عفا

حلماً وإن سيل اندفق

إن بخل الغيث سخا

أو عنف الدهر رفق

قوله: جرت إلى مآقيها الحدق بديع غريب لأن السواد الذي جعله حدقة العين هو في ناحية من النور، وليس متوسطاً له، فكأن الحدقة قد جرت إلى المآق وهو طرف العين مما يلي الأنف. وهدبها مستبطن.. البيت وهو مما أكمل به الوصف وتم التشبيه، لأن في الورقة التي ظهرها الصفة المتقدمة خطوطاً سوداً جعلها هدباً لتلك العيون وهي التي عنى بقوله:

كأن للمسك بها

مشقاً بنبات طرق

وقوله: أو ثن بما بلق جمع ثنة وهي الشعر الذي يكون على مؤخر الرسغ. قال أبو الوليد: ولي فيه تشبيه ربما يوافق وتمثيل كأنه يطابق وهو:

أرى الباقلاء البائل اللون لابساً

برود سماء من سحائبها غذي

ترى نوره يلتاح في ورقاته

كبلق جباد في جلال زمرد

ودخلت بستاناً لي مع الفقيه أبي الحسن بن علي وكان به باقلاء قد نور، فأخذ من نوره وصنع مصراعاً وسألني إجازته، ففعلت وزدت بيتاً آخر ومصراعه:

سبيح في كأس در

.....

وزيادتي.....:

أو كسوف وسط بدر

أو غوال في لآل

أو غشاء بين فجر

ووقعت إلي أيضاً في الباقلاء بعينه قطع مستطرفة وأوصاف مستطرفة تشبهت بالنور فأريت ذكرها فمنها وصف الوزير أبي عامر بن شهيد - رحمه الله - في قطعة بديعة بزيعة مطبوعة مصنوعة وهي:

إن لآليك أحدثت صلفا

فاتخذت من زمرد صدفا

تسكن ضراتها البحور وذي

تسكن للحسن روضة أنفا

هامت بلحف الجنان فاتخذت

من سندس في جنانها لحفا

تتقبها بالثغور من لطف

حسبك منا ببر من لطف

أكل ظريف وطعم ذي أدب

والفول يهواه كل من ظرفا

وقال لي الفقيه أبو الحسن بن علي: رأيت في يد صديق حبة باقلاء شديدة سواد القشر وكلفني وصفها فقلت بديهة:

فص من العاج حقه سبيح

ممتزج بالجمال مزدوج

فيه سواد يزين غرته
كأنه مقلّة بها دعجُ
يؤثر رطباً ويابساً أبداً
ويستبي النفس فوحة الأرجُ
وأخبرني أيضاً قال: طالعت بستاناً لي بغري قرطبة، وكان فيه باقلاء فجعل بعض الغلمان ينقي منه
ويناولني فقلت:

ريم سبى مقلتي تورده
يسل سيف الهوى ويغمدهُ
جار على جرجر فخر به
وظل من قشره يجردهُ
وكلما ابتز ثوب واحدة
منها حبتني بحبها يدهُ
فقلت مستطراً لفعلته
وزاد في نبله تعمدهُ
كلاكما لا عدمت حسنكما
ينشق عن لؤلؤ زبرجدهُ
فارتاب بي وانثنى على خجل
وحبه ساقط يبددهُ

قوله: جار على جرجر الجرجر لغة في الباقلاء وقوله: ينشق عن لؤلؤ زبرجده فاللؤلؤان من هذا وهذا
الحب والثغر. والزبرجدان منهما: القشر والشارب الأخضران. وفي القطعة من جيد الصناعة وحسن
الصياغة ما يعجب الناظر ويعجز الخاطر.
قال أبو الوليد: وفي بزر الكتان أوصاف موسومة بالإحسان أنا أذكرها إن شاء الله تعالى.

نور الكتان

قال أبو جعفر بن الأبار يصفه بوصف نادر مختار وهو:

وبزر كتان أوفى
بكل وهد ونجدِ
كأنه حين يبدو
مداهن اللازوردِ
إذا السماء رأته
تقول: ذا من فرندي

قال أبو الوليد: ولي فيه قطعة أخرى.

كأن نور الكتان حين بدا
وقد جلا حسنه صدا الأنفسُ
أكف فيروزج معاصمها
قد سترتهن خضرة الملبسُ
أو لا فزرق البياقوت قد وضعت
على بساط يروق من سندسُ

ووقع إلي في نور الغالبة وصف حسن الذكر أذكره لئلا أدع مستحسناً أجده.

نور الغالبة

قال الوزير الكاتب أبو القاسم بن الخراز يصفه فأحسن وأغرب وأبدع وأعجب وهو:

ورختجي سحابي قوائمه
خضر حكي ياسميناً في تفتحه
تميس قضبانه والريح تعطفها
مشي النزيف تهادى في ترنحه
كأن أوراقه في حسن خضرتها
من الزمرد أسناه وأملحه
تخير الشط في الأنهار منبته
ففار بالعرف في معنى تبطحه
وغالبا النور حتى قيل غالبه
فحسبه غالباً كافي مرشحه

قال أبو الوليد: ووقع إلي في نور الرمان قطعتان حسنتان ولم يتأخر عن غيره إلا بتأخر وقته وإبطائه عن أوان نظرائه.

نور الرمان

فمن التشبيهات العقم فيه قول أبي القاسم بن هانئ الأندلسي في كمامة نواره سقطت منه وهو:

وبنت أيك كالشباب النضر
كأنها بين الغصون الخضر
جنان باز أو جنان صقر
قد خلفته لقوة بوكر
كأنما مجت دماً من نحر
أو سقيت بجدول من خمر
أو نبنت في تربة من جمر
لو كف عنها الدهر صرف الدهر
جاءت بمثل النهدي فوق الصدر
تفتت عن مثل اللثات الحمر
في مثل طعم الوصل بعد الهجر

ومن التشبيهات الأنيقة، والتمثيلات الدقيقة قول أبي جعفر بن الأبار في كمامم هذا النوار وهو:

أعجب بأيك الرمان حين بدا
نواره المحتوي مدى السبقِ
مثل أكف الدمى محناة
أو كبنان الحمائم الورقِ
أو كحفاق تفتحت فبدت
غلائل وسطها من البرقِ

الجلنار

وللوزير أبي عامر بن مسلمة في وصف الجلنار أبيات بديعة رفيعة المقدار وهي:

وجلنار بنوره يزهر
أوراقه فتنة لمن أبصر
قد شبه الورد في تضاعفه
وقارب اللون حلة العصفرِ
مثل ثمار الرمان زاهرة
لكنه منظر بلا مخبرِ

قال أبو الوليد: ولي فيه قطعة ربما وافقت صفته وطابقت هيئته وهي:

وجلنار تبدى
يختال في جل نارِ
أحلى حلى من جميع ال
أنوار والأزهارِ
حكى خدود العذارى
قد شربت باحمرارِ
وخمشت بأكف ال
ألحاظ والأبصارِ

جل نار في القافية مفصول، وإنما هو جل من نار واتفق فيه تشبيهه وتجنيسه.

الخاتمة

قال أبو الوليد: إسماعيل بن عامر: هذا ما عثرت عليه، وانتهيت بكثرة البحث إليه، وإن وقع إلي بعد وصف رائق أو معنى فائق ألحقته في هذا الكتاب ووضعت في موضعه من كل باب، والبشر غير معصوم، ومن بذل جهد نفسه فليس بمذموم. وحسبي أي قد جمعت من غرائب الأندلسيين ونواديرهم، وأوردت من فضائلهم ومآثرهم ما يمكن أن يتغمد به، ويصفح من أجله عما عرض من زلل، أو وقع من حطل، فربما أدخلت لأهل عصري ما يقرب من البديع، ولا يبعد عن الربيع، فمن نقد ذلك فليعلم أني لم أجهله، وإنما تحفظت من ناظميه، وأغضيت لهم على ما فيه، وليس ذلك إلا في أبيات يسيرة، وصفات غير كثيرة، والله المستعان على التوفيق والهادي إلى سواء الطريق.

تم كتاب البديع في وصف الربيع بحمد الله وعونه، وصلى الله على محمد خيرته من خلقه وعلى أهله وسلم تسليماً.